السبت 29 نيسان 2023
العدد 4902 السنة السابعة عشرة
Samedi 29 Avril no 4902 17ème année

24 صفحة
20000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

سلمي الخضراء الجيوسي ... إلى «النبع الحالم»

تعيين بديل سلامة يفتح معركة المواقع المسيحية المالية الشاغرة [3]

حوار وشيك بين السعودية وحزب الله؟ [2]

[14 ـ 12]

السودان

الهدن تتوالد بلا أفق والمدنيون خارج التغطية

8

04
تقرير
حماية قانونية لسرقة المودعين

05
تقرير
إسرائيل لا تحتكر الردع

10
قضية

النفط مقابل الغذاء بنسخة سورية

قضية اليوم

حوار بين الرياض وحزب الله عبر طرف ثالث؟

غير المُقال في زيارة وزير الخارجية الإيراني حسين أمير عبد اللهيان أهمّ مما قيل. المُقال المعتاد، منه خصوصاً في أكثر من زيارة، دعم حكومته لبنان والجيش والمقاومة، واستعدادها تقديم مساعدات في قطاعات حيوية شتّى، وحضّه اللبنانيين على الاتفاق

نقولا ناصيف

غير المُقال في زيارة الوزير الإيراني أكثر أهمية تبعاً لتقاطع معلومات لدى أكثر من عاصمة، منها بيروت. غير المُقال هذا لم يُثر في اللقاءات الرسمية، بل في الاجتماع الذي أعلن أن حسين أمير عبد اللهيان عقده أول من أمس مع الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله. فحوى الاهتمام بتوقيت الزيارة، المعلومات التي وصلت الى مسؤولين رسميين لبنانيين من عاصمة أوروبية، نقلاً عن «مسؤول سعودي»، بأن المملكة فتحت حواراً مع مَن عادتهم، بدءاً بإيران مروراً بسوريا ونظام الرئيس بشار الأسد و«قريباً» مع حزب الله.

> في إيران كما في سوريا موقف مشترك معمّم: راجعوا حزب الله

معلومات غير رسمية في بيروت مُكمّلة لتلك، تحدثت متكتّمة عن التفاصيل عن أن «خط الحوار فُتح أو أوشك من خلال طرف ثالث». حصول هذا الحوار يعيد التذكير بالتواصل الأول والبتيم بين الطرفين، في لحظة إقليمية استثنائية، عندما استقبل الملك عبد الله في 4 كانون الثاني 2007 نائب الأمين العام الشيخ نعيم قاسم ونائب الحزب محمد فنيش خلال زيارتهما المملكة. بعد ذاك انقطع التواصل ودخلا في حرب إعلامية طويلة الأمد، بلغت ذروتها بعد تدخّل حزب الله في الحرب السورية.

سواء نجح المسعى أو أخفق، إلا أنه يعكس المرحلة الجديدة التي تعيد فيها الرياض ترتيب علاقاتها الإقليمية على طريق تأكيد زعامتها العربية، غير المسبوقة برَغم كهذا وحجم التحدّيات والمواجهات المعلنة وغير المعلنة التي تقودها، بدءاً من اليمن وصولاً الى لبنان ذهاباً الى الأميركيين، سوى خلال ولاية الملك فيصل بين عامَي 1963 و1975. أعلاها نبرة وثمناً باهظاً استخدامه سلاح النفط إبان الحرب العربية - الإسرائيلية عام 1973.

مع أن الزائر الإيراني لم يشأ الخوض في انتخابات الرئاسة اللبنانية مع مستقبليه، بمَن فيهم مَن فاتحوه فيها وطلبوا مساعدة حكومته، إلا أنه أعاد تأكيد أنها لا تتدخّل في الشؤون اللبنانية. الشقّ الآخر الذي لم يُفصح عنه علناً غير أنه سُمع مراراً وتكراراً في طهران كما في دمشق، وهو أن كلتا العاصمتين المعنيتين بطريقة أو أخرى بالشأن اللبناني أكدتا أكثر من مرة أن ملف لبنان - بما فيه استحقاقه الرئاسي - بين يدَي حزب الله وأمينه العام بالذات كمرجعية وحيدة. لم تكن قد مرت أيام على سماع النائب السابق سليمان فرنجية، مرشح الثنائي الشيعي، الكلام نفسه من الأسد حاضّاً إياه على التنسيق مع نصر الله. في ما مضى، سمع العبارة نفسها رئيس حكومة تصريف الأعمال نجيب ميقاتي في 21 أيلول المنصرم لدى لقائه في نيويورك، على هامش اجتماعات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي، مطالباً إياه بالمساعدة على إنجاز الاستحقاق الوشيك آنذاك. مع أن ولاية الرئيس ميشال عون لم تكن قد انتهت ولا وقع الشغور، إلا أن رئيسي أخطر ميقاتي أن حكومته لا تتدخل في الشأن اللبناني.

تلك إشارة ضمنية تدلّ على المكان الصائب في حسبان الإيرانيين للتفاوض معه في انتخاب الرئيس، وهو حزب الله.

على أن الإشارات الإيجابية الدائرة في المنطقة لا تشي بالضرورة أن لبنان على طاولة التفاوض، أو في أحسن الأحوال يُنظر الى ملفّه على قدم المساواة مع الملفات الرئيسية المفتوحة منذ أعلن اتفاق بكين بين السعودية وإيران، كاليمن وسوريا قبل انفجار السودان كاول تعبير سلبي يجب التحولات الأخيرة ويعيد السخونة الى المنطقة برمتها. بذلك مازق الرئاسة مستمر الى أمد غير معروف لأسباب شتى:

1 - رغم رسائل التطمين التي أرسلها فرنجية هذا الأسبوع الى المملكة ومناهضيه المسيحيين، محتملاً الى الآن على الأقل، ليست متاهَبة لقلب موازين القوى في الداخل رأساً على عقب، ولا تبدو أنها تميل الى خيار كهذا في الظاهر. أن لا تقول الرياض إنها ضد فرنجية لا يفضي الى استنتاج صائب سليم أنها معه أو ستصبح معه قريباً.

2 - لم تُضف تطمينات فرنجية الى الوقائع الحالية ما يعزّز حظوظه، المتقدمة في أي حال سواه دونما تمكينه من الوصول الى المنصب. لا يملك أقوى المرشحين من خلال الثنائي الشيعي وحلفائه الأكثرية المطلقة ولا الثلثين لفرض الانتخاب، ولا يملك كذلك خصومه أيّاً منهما. للرياض نصف المقاعد السنّية وهو سبب كافٍ كي لا تكون عاملاً مقرراً لانعقاد جلسة الانتخاب بالثلثين. أضعف الأفرقاء المهتمّين بالاستحقاق باريس. لا تملك مقعداً واحداً في البرلمان، ولا مَلَكة المؤنة على كتلة ما. مع أنها توحي بالظهور أنها قائدة حملة إخراج لبنان من شغوره، بيد أنها الطرف الأعزل العالق في غابة وحوش. وحده انضمام الأميركيين الى المعادلة الداخلية، بتفاهم أو غض طرف مع الثنائي الشيعي، يأتي بـ 86 نائباً على الأقل الى القاعة.

3 - إذا صحّ أن السعودية وإيران تتعاملان مع ملفات المنطقة، كل على حدة، منفصل بعضها عن بعض، إلا أن الإشكالية اللبنانية الحالية بشقّيها السياسي والطائفي تحتّم مقاربة ما بدأ في اليمن، مع ما يفترض أن يجري في لبنان: ما لم يسّع إيران أن تفعله وهو أن لا تعطي السعودية اليمن بلا الحوثيين، لا تملك أن تأخذ في لبنان في معزل عن المسيحيين. ليست المعادلة هذه إلا تأكيداً على الاعتراف المتبادل بالأحجام الواقعية الملزمة: أن يكون الحوثيون معتَرفاً بهم ومفاوضين ومفاوَضين مع المملكة على أنهم شركاء في بناء نظام جديد للبلاد تلك، وأن يكون المسيحيون اللبنانيون هم الشركاء الفعليين في النظام اللبناني، وخصوصاً موقعهم ودورهم وخياراتهم في رئاسة الدولة.

لأن استقرار اليمن يتطلب شراكة حقيقية للحوثيين، المسار نفسه لاستقرار لبنان بالاعتراف بشراكة حقيقية للمسيحيين فيه.

(هيثم الموسوي)

بقوة صلبة تقف الى جانبه هي رفض القبول بفرنجية. بينما قطع الأول المسافة الصعبة في الخلاف وربما القطيعة مع حزب الله في الإصرار على هذا الرفض، لا يجد الثاني صعوبة في الذهاب الى أكثر من تباين في الرأي مع المملكة إذا بَانَ أنها قد تحطّ في نهاية المطاف عند الزعيم الزغرتاوي.

جبران باسيل وسمير جعجع عن قبل بعض الأعضاء، ما حوّل النقاش إلى مناوشات جانبيّة وصراخ في القاعة. عندها تدخّل الرئيس السابق «الاتحاد» محمّد أمين عيتاني، طالباً من الجميع الصمت، قبل أن يضع صوته وسط «حوار الطرشان»، وتراشق الاتهامات والتشكيك بقانونيّة بعض القرارات السابقة والعتب على إرجاء الانتخابات، في تعبير عن الاصطفاف القائم منذ أشهر بين موالين لـ«تربو الرؤساء السابقين» و«اللقاء التشاوري» الذي يضم مجموعة من المُعارضين وبعض المنظّمين في تيّار المستقبل ومقرّبين من النائب فؤاد مخزومي، على خلفيّة «تخليص حسابات» مرتبطة بغالبيتها بدعم الـ«تربو» للائحة الرئيس فؤاد السنيورة في بيروت في الانتخابات النيابية الأخيرة، مخالفين قرار الرئيس الحريري بالمقاطعة.

وعليه، لا يتوقع المتابعون أن تتغيّر خريطة التحالفات والأزمة التي ستنتجها الانتخابات المقبلة، لافتين إلى أنّ الوفاق طار إلى غير رجعة، والأرجح أن الأمور ذاهبة إلى مزيد من التأزم مع اقتراب الاستحقاق، وخصوصاً أنّ الاجتماعات المتعلقة بالترشيح ستبدأ مطلع الأسبوع المقبل.

وبدلاً من أن ينتهي الاجتماع بعد دقائق من إعلان 9 حزيران موعداً لانتخاب 18 عضواً للهيئة الإداريّة وتحديد المهل لتسديد العائلات المنتسبة للمستحقات المالية وتسوية أوضاعها في وزارة الداخلية وفتح باب الترشيح والاعتراض على المرشحين وعلى الهيئة الناخبة، امتدّت الجلسة إلى نحو ساعة من المناوشات. وحاول بعض أعضاء الهيئة الإداريّة الاعتراض على ما سمّوه «تأخيراً» لموعد الانتخابات.

وكان لافتاً أنّ «الاستنفار» الذي عملت عليه بعض الجهات في الأيّام الماضية من أجل تأمين حضور واسع في الهيئة العامّة لم يؤتِ ثماره، إذ لم يكتمل نصاب الهيئة العامّة في الجلسة الأولى ولا بعد تأجيلها ساعة ونصف ساعة، بعدما حضر أقل من 90، فيما كان يفترض حضور 121 على الأقل (النصف زائداً واحداً).

تقرير

ميقاتي مصرّ على بديل لسلامة خشية فوضى مالية ونقدية

ميسم رزق

«حتى لو حصل ادعاء قضائي خارجي على حاكم مصرف لبنان رياض سلامة، وأصبح ملاحقاً دولياً، لن يُصار إلى إقالته من منصبه». هذا كان قرار رئيس حكومة تصريف الأعمال الرئيس نجيب ميقاتي للإبقاء على سلامة حتى انتهاء ولايته نهاية تموز المقبل.

«اذا صدر في اي بلد اوروبي اتهام صريح لرياض سلامة، سيتوقف كل مصرف مركزي في العالم وكل مصارف المراسلة عن التعامل مع مصرف لبنان». هذا ما فهمه سياسيون بارزون ومسؤولون في القطاع المصرفي من جهات دولية رفيعة.

على هذه القاعدة، يجري اليوم البحث في ملف حاكمية مصرف لبنان. وخلال الايام القليلة الماضية، ظهرت الى العلن مجموعة معطيات، اولها اهتمام باريس بالامر، وإثارتها الملف مع المرشح الرئاسي سليمان فرنجية، وقد أورد الفرنسيون اسم الوزير السابق جهاد ازعور باعتباره محل ثقة لدى الاوساط المالية والمصرفية في العالم العربي ويحظى بموافقة اوروبية وأميركية. إلا أن ازعور لم يبد حماسة للأمر، وهو حال آخرين ممن جرى تداول اسمائهم أو التواصل معهم من قبل جهات رسمية في لبنان والخارج. كما جرى الحديث عن مشاورات يجريها رئيس الحكومة مع الاميركيين والفرنسيين للاتفاق على شخصية تقبل تولي هذه المهمة. وتم تداول معلومات عن اتصالات جرت مع مصرفي يعمل في مؤسسة مالية دولية، ولديه خبرة في الملفات الاقتصادية، وربما يكون مؤهلا لهذا المنصب. كذلك جرى الحديث عن طرح الأمر على شخصية مصرفية ستصل الى بيروت الاسبوع المقبل.

ويأتي إصرار ميقاتي على تعيين خليفة لسلامة لشعوره بأن توجيه الاتهام إلى الأخير قد يدفعه الى التنحي، وإلا فإن عدم حصول توافق على التسوية الرئاسية قد يجعل المنصب شاغراً في تموز المقبل. علماً أن رئيس الحكومة سمع نصائح دستورية بتجنّب الذهاب إلى هذا الخيار في ظل الشغور الرئاسي، وباحترام القانون الذي يقضي بتسلم النائب الأول للحاكم وسيم منصوري مهام سلامة لحين تعيين حاكم جديد بعد الانتخابات الرئاسية.

وفيما تردد ان منصوري لا يريد تحمل هذه المسؤولية، فان ما نُقل عن الرئيس نبيه بري، يشير الى ان لا قرار باستقالة الأخير من منصبه. إلا ان بري، ومعه حزب الله ووليد جنبلاط وغيرهما، يفضلون الا يؤول المنصب إلى غير ماروني بعد اتساع «الاحتجاج المسيحي» على الشغور في مواقع عديدة يشغلها مسيحيون، من دون أن يخفّف من هذا الاحتجاج تكليف العميد الياس البيسري تسيير شؤون الامن العام بعد تقاعد اللواء عباس ابراهيم. إذ يبدو واضحا أن القوى البارزة مسيحياً لا تعتبر البيسري محسوباً عليها.

وفي هذا السياق، برزت مشكلة جديدة تتمثل في أن أي حاكم جديد لا يباشر مهامه قبل ان يقسم اليمين أمام رئيس الجمهورية. ورغم اقتراح البعض التمثل بسابقة تعيين الرئيس السابق للجنة الرقابة على المصارف سمير حمود واعضائها خلال ولاية حكومة الرئيس تمام سلام في ظل الفراغ الرئاسي يومها، وإرجاء قسمهم اليمين إلى ما بعد انتخاب الرئيس ميشال عون، وبدء اللجنة أعمالها وفق قرار لمجلس الوزراء، إلا أن المعارضين لهذا التوجه يشيرون إلى أن حكومة سلام لم تكن مستقيلة كما هي حال حكومة ميقاتي اليوم، كما ان التوافق السياسي يومها جعلها سلطة جماعية تصدر قراراتها بتوقيع كل وزرائها.

إلى ذلك، نصحت قوى سياسية ممثلة في الحكومة، على رأسها حزب الله، بعدم جواز التمادي في ممارسة صلاحيات رئيس الجمهورية والذهاب الى إقرار تعيينات جديدة في غيابه. وقال مطلعون ان تعيين الحكومة بديلاً للحاكم يسقط مبررات عدم ملء شواغر ادارية أخرى يشغلها مسيحيون ذات صلة أيضاً بالوضع المالي والنقدي، كمدير عام وزارة المالية، وهو عضو حكمي في المجلس المركزي لمصرف لبنان وهيئة الاسواق المالية والهيئة المصرفية العليا، ومفوض الحكومة لدى مصرف لبنان الذي يشغله ارثوذكسي وهو منصب حساس في عمل المصرف المركزي، اضافة الى شغور المنصب الماروني في لجنة الرقابة على عمل المصارف، وهو ايضا معني بعمل مصرف لبنان. وبالتالي، فان تعيين ميقاتي بديلاً عن الحاكم يوجب اجراء هذه التعيينات، وعندها ستكون هناك مطالبة بتعيين رئيس المجلس الاعلى للخصخصة وهو ماروني ايضاً، اضافة الى رغبة ثنائي أمل وحزب الله بتعيين مدير اصيل للامن العام، ما يضع البلاد امام مواجهة جديدة في ظل انقسام كبير

> تعيين حاكم لمصرف لبنان ينسحب صراعاً على مواقع مسيحية شاغرة

على خلفية الملف الرئاسي.

ويُعزى إصرار ميقاتي أيضاً الى تأكيد الرئيس بري رفضه تسليم مهام الحاكم الى منصوري، وهو ما كرره قبل أيام على مسامع زواره، ما سيؤدي إلى مشكلة أكبر في حال سقوط السيناريوهات البديهية لتجنب الفراغ. ففي حال تعذر اجتماع مجلس الوزراء لتعيين حاكم جديد مكان سلامة، واستقال منصوري لتفادي تولي المسؤولية، وعدم توافر غطاء سياسي يسمح بتعيين حارس قضائي (وهي فكرة سبق أن طرحت على هامش التحقيقات اللبنانية في ملف الحاكم وشركاه)، ستسود فوضى كبيرة في سوق النقد، وستتفاقم أزمة المودعين لعدم وجود من يتولى ادارة مصرف لبنان وفق قانون النقد والتسليف. إذ أن استقالة منصوري تعني سقوط المجلس المركزي الذي لن يتوافر له نصاب حتى لو تولى النائب الثاني مهام الحاكم (استناداً إلى المادة 27). إذ سيكون هناك 4 أعضاء غائبين هم الحاكم ونائبه الأول والمدير العام لوزارة المالية (جرى تكليف جورج معراوي بالإنابة) ومفوض الحكومة لدى مصرف لبنان (جرى تكليف موني خوري القيام بعد استقالة كريستيل واكيم)، ما سيؤدي إلى بلبلة كبيرة داخل المركزي.

في هذا الإطار، قالت مصادر مطلعة إن «الكواليس السياسية تنشط بحثاً عن مخرج لاستحقاق المصرف المركزي، ومن المتوقع أن يصار الى تفعيل قنوات التواصل وتكثيف التشاور في الأسبوع المقبل للبحث عن مخرج له، مشيرة إلى أن انتخاب رئيس الجمهورية هو المدخل الوحيد لحل كل المشاكل بما فيها التعيينات في المراكز الأولى.

(هيثم الموسوي)

تقرير

«موقعة» اتحاد العائلات: غياب الحريري يقسم بيروت

جلسة حامية شهدتها الهيئة العامّة لـ«اتحاد جمعيّات العائلات البيروتية»، أمس. تحوّلت إلى تلاسن واتّهامات متبادلة. النقاش العالي النبرة عبّر عن اصطفافات حادّة، وعن مدى التشتّت الذي خلّفه غياب الرئيس سعد الحريري

لينا فخر الدين

واحدة من نتائج اعتكاف الرئيس سعد الحريري تهاوي اتحاد جمعيّات العائلات البيروتيّة. غياب الغطاء الذي كان «الاتحاد» يتدثّر به منذ تشكيله، أدّى إلى ضعضعة صفوفه وتخبّطه في مشاكل كان قاطنو بيت الوسط، وقبله قريطم، قادرين على حلّها بـ«طرفة عين». إذ لا سابقة لما شهده اجتماع الهيئة العامّة لـ«الاتحاد» أمس، بعدما تحوّل إلى تلاسن وتبادل شتائم، وسرعان ما بدأ عقده بالانفراط بسبب استياء عدد من الأعضاء من «الانزلاق إلى هذا المستوى من الخطاب».

لم «يبلع» كثيرون ما حصل في آذار الماضي، عندما تقدّم ثلاثة أعضاء من الهيئة الإداريّة هم: ماجد دمشقية ونسيبة الطبش ومحمّد عبد القادر سنّو، بعريضة إلى قاضي الأمور المُستعجلة في بيروت أفضت إلى وقف انتخاب هيئة إداريّة جديدة. لذلك، استغلّ البعض تحويل جلسة أمس المُقرّرة لتحديد 9 حزيران موعداً جديداً للانتخابات، إلى التصويب على دمشقيّة خصوصاً ومحاكمته بتهمة «نسف» الانتخابات بعدما وصلت المبادرة الوفاقية بين «تربو» الرؤساء السابقين (محمّد عفيف يموت ومحمد أمين عيتاني ومحمّد خالد سنو) والمُعارضين لهم إلى طريق مسدود.

دفع ذلك بدمشقيّة إلى الدفاع عن نفسه، مشيراً إلى أنّ العريضة التي قدّمها كانت بسبب ضبط مخالفة قانونيّة أقدمت عليها الهيئة العامّة في اجتماعها السابق، ما كان سيؤدي حتماً إلى «وقوعنا في مخالفات قانونيّة أخرى». إلا أنّ ردّ دمشقيّة وخالته قصدتا الشقة لتنظيفها. ولدى عثور الوالدة على مستوعب يحتوي مادة بيضاء، طلبت من شقيقتها «رمبيا» في البانيو. ولدى دخول الأخيرة إلى الحمام، دوّى انفجار ضخم أدى إلى تدمير الشقة ومقتل الأخيرة، التي تناثر نصفها العلوي أشلاء، فيما أصيب شاب كان في أسفل المبنى. ولم يُعرف بعد إذا كان الانفجار بسببه اصطدام المادة الحساسة بجسم صلب أو فتح المياه عليها.

وكشفت مصادر عسكرية أنّ ما كان في المستوعب مزيج متفجر من Tri peroxide وTriacitone يدخل في تصنيع البلاستيك والفيبرغلاس، ويمكن الحصول عليه. وأوضحت أنّ هذه المادة مكوّنة من الأسيتون وماء الأوكسيجين وحمض البيروكساید، وقد استُخدمت في هجمات إرهابية في باريس. وهي تتميّز بحساسيتها، إذ إنها تنفجر بسرعة بمجرد تعرّضها للحرارة أو الصدمة، ما يجعلها خطرة للغاية، ما دفع الكثير من مصنّعي العبوات الناسفة إلى تجنّب استخدامها لخطورتها. وأشار خبير كيميائي إلى أنّ هذه المادة عادةً تُباع على شكل بودرة بيضاء، وأنّ أجهزة كشف المتفجرات لم تكن تتحسّسها قبل عام 2015 لكونها لا تحتوي على النيتروجين.

وكان المحقّقون قد اشتبهوا بشخصين يرتديان نظارات شمسية أظهرت كاميرات المراقبة أنهما تردّدا على المبنى في الأيام الماضية على متن دراجة نارية، وكان كل منهما يحمل حقيبة. وأظهرت الكاميرات الشخصين يتفحّصان المبنى من الخارج، ما أثار شبهات لدى الأجهزة الأمنية حول قيامهما بإحضار عبوة ناسفة، قبل أن يتبيّن أنّ أحدهما اشترى شقة في المبنى قبل أسابيع وأنّ الآخر مهندس ديكور.

ولم يُعرف بعد ما إذا كان سيُفتح تحقيق مع المسؤولين عن تفتيش الشقة بالإهمال من تسليم شقة كانت مسرحاً لانفجار أدى إلى إصابات وضُبطت فيها عبوات ناسفة، من دون التثبّت من خلوّها من أيّ خطر، ما تسبب في حصول انفجار ثانٍ أدى إلى سقوط قتيلة.

تقرير

انفجار شقة الضاحية: مواد متفجّرة خلّفها الأمنيون!

رضوان مرتضى

كشفت التحقيقات الأمنية أنّ انفجار الجاموس في الضاحية الجنوبية، أول من أمس، ناجمٌ عن مادة سائلة شديدة الانفجار لم يتنبّه المحقّقون وعناصر فوج الهندسة وخبراء المتفجرات وفرع المكافحة لوجودها، رغم تفتيشهم الشقة مرّات عدة. وعلمت «الأخبار» أنّ الجيش كان قد سلّم، قبل يومين من الانفجار، مفاتيح الشقة لأصحابها، بعدما بقيت في عهدة القوى العسكرية منذ 27 آذار الماضي، عندما انفجرت عبوة في الشقة نفسها بالجندي المسرّح م. الغول، ما أدى إلى إصابته ثم توقيفه. وبحسب المعلومات، فإن والدة الغول

تقرير

الحكومة تغطي النظام المصرفي
حماية قانونية لسرقة المودعين

محمد وهبة

في 18 نيسان الماضي، وبناءً على مطالعة من وزير المال يوسف الخليل، اتّخذ مجلس الوزراء قراراً رقمه 22 يهدف إلى تشريع الجريمة المنظّمة التي ارتكبها مصرف لبنان والمصارف لحجز أموال الناس. فالقرار يمنح الطرفين حصانة في مواجهة دعاوى إساءة الأمانة والإفلاس الاحتيالي التي تواجه عدداً من المصارف الآن، كما أنه يحاول تبرير كل إجراءات مصرف لبنان أثناء الأزمة وفرض قيود غير شرعية على الودائع.

ففي جلسته الأخيرة، أقرّ مجلس الوزراء الآتي: «الطلب من المصرف المركزي اتخاذ الإجراءات الضرورية والمناسبة لإلزام المصارف بسقف السحوبات المتاحة للمودعين

> القرار الوزاري ليس أمراً استثنائياً ويخرج عن النطاق الضيق لتصريف الأعمال

(سحباً أو تحويلاً) وفقاً للتعاميم ذات الصلة، وإلا التعامل بشكل يساوي في ما بينهم وعدم إعطاء أولوية لودائعة على أخرى أو على أي التزام آخر بالعملة الأجنبية مهما كان نوعه ومصدره والاستمرار بمنح عملائها حرية التصرّف بالأموال الجديدة (فريش)».

وجرى تبرير القرار بعرض قدّمه وزير المال يوسف الخليل حول ما أسماه «فوضى في التعامل مع المودعين نتيجة عدم انتظام العمل في القطاع المصرفي وتعثّر الالتزام بالضوابط التشريعية أو التنظيمية والتي من نتائجها تأمين المساواة بين المودعين»، ثم استرسل الخليل في سرد قصّة «حرص الحكومة» على مشروع الكابيتال كونترول لضبط حركة التحاويل والمعاملات المصرفية ووضع حدّ للخلل الحاصل في هذا القطاع والحؤول دون انهياره... مشيراً إلى أن الحقّ على مجلس النواب الذي لم يقرّ المشروع بعدُ مفرّطاً بحقوق المودعين والمساواة في ما بينهم، ثم خلص إلى اعتبار هذا الواقع «ظرفاً استثنائياً يوجب على الحكومة اتخاذ تدابير استثنائية». وجرى الاستناد إلى المواد 70 و71 و174 من قانون النقد والتسليف لإصدار القرار المسخ.

السرد المؤثّر الذي قدّمه الخليل في مجلس الوزراء، لم يكن مبنياً على قواعد قانونية بل يقال إنه أتى بتوجيه واضح من رئيس الحكومة نجيب ميقاتي الذي وعد المصارف حين كانت تمارس الإقفال بوجه الزبائن قبل بضعة أسابيع، أن يمنحها غطاء يشرّع الكابيتال كونترول. لكنّ هذا الغطاء لم يكن ليأتي من دون تغطية مماثلة لتعاميم مصرف لبنان التي صدرت أيضاً، استناداً إلى قانون النقد والتسليف ولا سيما المواد المذكورة. فالمادتان 70 و71 تشيران بوضوح إلى «مهمة المصرف العامة» فيما المادة 174 مصنّفة تحت باب «قواعد تسيير العمل العامة». فمن مهمة المصرف المركزي الحفاظ على سلامة النقد وسلامة المصارف والاستقرار الاقتصادي، وهو من يتعاون مع الحكومة ويقدّم لها مشورته، ولديه صلاحيات إصدار التوصيات وإصدار التعاميم. بهذا المعنى، فإن القرار الحكومي الذي أقرّ بإجماع كل الوزراء، هو عرض تجريبي لعملية تشريع الجريمة المنظّمة التي قامت بها قوى السلطة في السنوات الأربع الماضية. وعلى حدّ قول أحد المصرفيين، فإن قائد المافيا، لم يكن يعمل وحده، بل كان يعمل لمصلحة المافيا التي ستعمل بدورها على تغطيته... وأخيراً أتى هذا الغطاء.

(هيثم الموسوي)

المهم، أنّ المسألة لا تتعلق بتشريع الكابيتال كونترول الذي مارسه مصرف لبنان والمصارف منذ بداية النصف الثاني لعام 2019، بل المسألة تتعلق بتشريع الجريمة التي ارتُكبت خلال فترة إدارة الأزمة وصولاً إلى جذورها التي تعود إلى السنوات الماضية.

والقرار يستدعي أيضاً معاينة قانونية أجراها المحامي كريم ضاهر، وخلص بنتيجتها إلى أن القرار مجرّد «هرطقة دستورية» لأن مجلس الوزراء في حالة تصريف أعمال «وهو قرار يخرج عن النطاق الضيق لتصريف الأعمال، وأن تبرير صدوره بالظروف الاستثنائية يوجب السؤال عما إذا كان هناك أي ظرف أكثر استثنائية من الظروف التي مرّت منذ النصف الثاني من عام 2019، بينما الآن لم يعد الظرف استثنائياً بمقدار ما كان عليه في أوّل سنة من الأزمة مثلاً».

ويضيف ضاهر، أن القرار هو محاولة «بصورة غير مباشرة لتبرير كل الأعمال التي قام بها مصرف لبنان في السنوات الماضية». كما يرى ضاهر أن القرار «يحاول تغطية دعاوى إساءة الأمانة والإفلاس الاحتيالي التي تعرّضت لها المصارف من المودعين والتي تفرض حضور وامتثال رؤساء مجالس إدارة المصارف وأعضاء مجالس إدارتها لمختلف الإجراءات القضائية، ما يدفعهم إلى إجراء تسويات تزعجهم». قرار كهذا بات يمكن استعماله كورقة من أجل وقف تنفيذ القرارات القضائية التي تزعج المصارف وأصحابها.

لكن بعيداً عن سياق تبنّي القرار وخلفياته، يبدو أن القرار قابل للطعن. فهو يسهّل العملية الجارية منذ فترة إلى الآن، أي تذويب الودائع وتحويلها إلى ليرات تفقد قيمتها سريعاً. بل يرى ضاهر أنه أكثر من ذلك، إذ يعتبر أنه «إعادة هيكلة مبطّنة للمصارف، فضلاً عن كونه كابيتال كونترول مبطّناً أيضاً، لكنه قبل كل ذلك يخرق تراتبية القوانين، ولدينا مهلة شهرين للطعن فيه، وسنقوم بهذا الأمر».

تقرير

القضاء الأوروبي استمع إلى الحويك... والخليل تخلّف ولن يحضر

رلى إبراهيم

أنهى الوفد القضائي الأوروبي (فرنسا، ألمانيا، لوكسمبورغ وبلجيكا)، أمس، استجواب مستشارة حاكم مصرف لبنان مريان الحويك في ملف تبييض الأموال والاختلاس الذي يحقق فيه محلياً وأوروبياً، والذي نجم عنه تحويل نحو 326 مليون دولار من مصرف لبنان لمصلحة شركة يمتلكها شقيق الحاكم رجا سلامة.

الأموال هُرّبت إلى الخارج عبر مصارف في دول أوروبية، وجرى تبييضها في شراء عقارات وشقق بأسماء شركات وهمية لإخفاء هوية المالكين الحقيقيين، وكانت الحويك شريكاً أساسياً في هذه العملية، إذ تلقّت تحويلات مالية روتينية من الحاكم رياض سلامة ساهمت في تكوينها ثروة قدّرت بـ 14 مليون يورو بعد 6 سنوات من التحاقها موظفة في المصرف عام 2005 براتب لا يتعدّى 3 ملايين ليرة، ارتفع تدريجياً الى 13 مليوناً عام 2015، ثم 18 مليوناً عام 2020 بعد توليها منصب مستشارة تنفيذية ممتازة للحاكم. وخلال فترة عملها في المصرف، استعان بها الحاكم لإنجاز مشاريع لا تدخل ضمن وظيفتها، فعُيّنت مسؤولة عن دعم الاقتصاد الرقمي، ثم مساعدة في تطبيق «صيرفة»، مقابل مبالغ مالية كبيرة زعم سلامة أنه كان يحوّلها إليها من «جيبه الخاص» بواسطة شقيقه رجا. وخلال هذه الفترة أيضاً، تملّكت الحويك شققاً في الأشرفية والرابية وباريس، وشقة ومطاعم في لندن، وشركات في لبنان وأخرى في بنما. وقد ورد اسم الحويك في التحقيقات السويسرية والفرنسية، وفي طلب المساعدة القضائية الموجّه من سويسرا الى لبنان، قبل أن يستجوبها القاضي جان طنوس العام الماضي، والوفد القضائي الأوروبي في اليومين الماضيين.

من جهة أخرى، لم يحضر وزير المال يوسف الخليل أمس الجلسة التي كان مقرراً الاستماع فيها إليه أمس. وعلمت «الأخبار» أنه سيتم تحديد موعد آخر للاستماع الى الخليل الأسبوع المقبل، وسط تأكيد مصادر حكومية أنه سيتخلّف عن الحضور بطلب وغطاء من الرئيسين نجيب ميقاتي ونبيه بري. كما سيتم تحديد جلسة استماع أخرى الى شقيق الحاكم رجا سلامة، الذي لم يحضر الى الجلسة المحددة له بداية الأسبوع الجاري مقدّماً عذراً صحياً. وسيستمع المحققون الى مسؤولين في شركات التدقيق في حسابات مصرف لبنان (Ernst&Young, Deloitte,) (Semaan Gholam&co إضافة الى أحد المديرين السابقين في المركزي وأحد نواب الحاكم السابقين، إضافة الى مصرفيين.

في غضون ذلك، لا تزال مطالعة القاضي رجا حاموش بانتفاء صفة رئيسة هيئة القضايا القاضية هيلانة اسكندر في ملف الادعاء على رياض سلامة تتفاعل، ولا سيما أن رأي حاموش أتى مطابقاً لطلب وكلاء سلامة لناحية عدم نيل اسكندر موافقة وزير المال. وفيما أرسل حاموش هذه المطالعة إلى قاضي التحقيق الأول في بيروت شربل أبو سمرا للبناء عليها بعد طلب وكلاء سلامة عدم حضور اسكندر لجلسات استجواب الحاكم، ردّت رئيسة هيئة القضايا التي تمثل الدولة اللبنانية على المطالعة، مؤكدة «حق الدولة اللبنانية وخصوصاً بملف يتعلق باختلاس أموال عامة». وأرفقت ردّها بكتاب وزير المال الذي ينفي أيّ علاقة له بإبداء الرأي بشأن اتخاذ الدولة صفة الادعاء الشخصي في التحقيق، مشيراً الى أنه يتوجّب على الهيئة القيام بما تراه مناسباً.

هذا الرد أرسلته اسكندر الى أبو سمرا، بحسب المصادر، وطلبت إحالته الى حاموش لإبداء رأيه مجدداً طالما أن كتاب وزير المال لم يكن مدرجاً في مطالعته، وكذلك إبلاغ الكتاب الى وكلاء سلامة. ووفقاً للمعلومات، فإن مطالعة حاموش لم تصدر بعد، ولكن يفترض أن يقدّمها قبل 18 أيار المقبل، الموعد الذي حدّده أبو سمرا لاستجواب سلامة، لأنه يتعذّر على قاضي التحقيق استجوابه قبل بتّ هذه المسألة. ويرجّح تأجيل موعد الاستجواب لأن اتخاذ أبو سمرا قراراً لمصلحة وكلاء سلامة سيقود الى استئناف اسكندر للقرار، فيما صدور قرار لمصلحة الدولة اللبنانية سيدفع وكلاء سلامة الى الاستئناف.

تقرير

اسرائيل لا تحتكر الردع

يحيى دبوق

يمكن تلمّس الأعذار لمن يرفضون الاعتراف بارتداع العدو الإسرائيلي، رغم إقرار العدو نفسه بذلك عبر انكفائه عن الساحة اللبنانية خشية ردّ فعل حزب الله، إذ إنّ اعترافهم يعني إقراراً مزدوجاً بالفشل: مرة نتيجة ثبوت خطأ خياراتهم الاستسلامية مقابل نجاعة خيارات الحزب، ومرة لفشل رهانهم على العدو الذي تتقاطع مصالحه العدائية مع خصومتهم للمقاومة.

ثمّة أسئلة تثار منذ سنوات: هل لا يزال يحتاج ارتداع إسرائيل في لبنان إلى دلالات؟ وهل يضمن الارتداع ألّا يعاود العدو اعتداءاته؟ وهل ولّت محاولات فرض الإرادة السياسية والاقتصادية والتبعية الإسرائيلية على لبنان؟

الردع بالمنع والردع بالعقاب اتجاهان رئيسان، يتكاملان في ما بينهما، لنظرية الردع التي امتهنتها إسرائيل منذ أكثر من سبعة عقود، وحقّقت لها الغلبة في معظم صراعاتها، وأحياناً من دون مواجهات مباشرة.

يُعد الردع أحد مركّبات العقيدة الأمنية للدول والكيانات العسكرية. وهو يهدف، في حده الأدنى، إلى منع العدو من المبادرة إلى الإيذاء خشية التبعات أو الفشل. في الردع بالمنع، يدرك الطرف المبادر مسبقاً أنه لن يحقق ما يرمي إليه فيتراجع كي لا تكون مبادرته بلا جدوى. أما في الردع بالعقاب، فإنه يدرك مسبقاً أن ما ينتظره من رد فعل وخسائر قد يفوق ما سيجنيه. بعبارة أكثر مباشرة، يخاف من اللاجدوى ومن الفشل مهما فعل، ومن العقاب إن حقّق فائدة ما.

غير أن الردع لا يمكن أن يحقق مفاعيله ما لم تتوافر مقدّماته: قدرة فعلية على الصمود، أو على الأقل إفهام الطرف الآخر بوجود قدرة على الصمود تلغي الأمل بإمكان تحقيق فائدة، وقدرة مادية على الرد بما يتناسب أو يزيد على الفعل المبادر إليه.

إلا أن الردع ليس حكراً على طرف دون آخر. وهنا تكمن مشكلة إسرائيل مع حزب الله، إذ ليس سهلاً على كيان العدو، وعلى من يتقاطع معه في المصالح، أن يتحول الرادع إلى مردوع، وإن حافظ على كونه رادعاً، في ما يُسمى الردع المتبادل.

لنعاين ما لدى حزب الله من مقدّمات، قبل الحديث عن ردعه ومستواه:

يتطلب الردع مقدّمات ثلاثاً: امتلاك القدرة المادية على الإيذاء، وإرادة وقرار بتفعيل هذه القدرة في حال عمد العدو إلى الاعتداء على أن يفوق الأذى الذي يلحقه الردّ المكاسب التي يحققها العدو. وكلّما ارتفع مستوى الإيذاء كان مستوى الردع الابتدائي مرتفعاً.

ورغم أن القدرة الإيذائية لإسرائيل أعلى مما لدى حزب الله، إلا أن ما لدى الأخير ما يكفي لمنع العدو من المبادرة. وفي هذا السياق، تدرك إسرائيل قدرة حزب الله الإيذائية جواً وبراً وبحراً، وتعاظمها كماً ونوعاً ومدىً، إضافة إلى «الوافد الجديد»، وهو القدرة على توجيه ضربات دقيقة يعدّها العدو كاسرة لكل التوازنات.

وقد تنامت قدرة الحزب الإيذائية إلى حدّ إعطاء مفاعيل ردعية مضاعفة يُحسب لها على طاولة التخطيط والقرار في تل أبيب قبل اتخاذ أي قرار بالاعتداء. فإذا كانت جدوى الاعتداء مقابل ثمن «معقول» يبادر العدو، وإلا، فلا معنى لدفع ثمن أعلى من الجدوى. وهذه المعادلة تسري على إسرائيل وحزب الله على السواء.

ولو كانت المعادلة تقتصر على القدرة المادية، لكان الطرفان عمدا إلى المبادرة الاعتدائية من دون تردد. لكنّ السؤال الذي يطرحه الطرفان على طاولة القرار يتعلق باليوم الذي يلي الاعتداء، وهو ثمن لاحق من شأنه أن يقلّص الفائدة والجدوى، ويرفع الثمن.

كيفما اتفق، يكون الردع مبنياً على القدرة الإيذائية التي يملكها طرف في وجه آخر. لكن، يشترط أن يمتلك أيضاً إرادة وقرار تفعيل هذه القدرة، وإلا سيتعامل معها الطرف الآخر، في حال التهديد بها، وكأنها قدرة محبوسة يتعذّر تفعيلها، ما يشكّل ثغرة في القدرة الردعية ويشجّع على تجاوزها.

لكنّ المفارقة أن قياس الإيذاء، ربطاً بالقدرة لدى الجانبين، لم يعد مهماً. قدرة إسرائيل على الإيذاء لا تحتاج إلى دليل. فيما باتت قدرات حزب الله الإيذائية مشبعة، ومهما زادت لن تغير كثيراً في الرادعية. فأن تضرب منشآتين كهربائيتين أو ثلاثاً مقارنة غير ذات جدوى عملية، لأن الضرر في الحالتين كبير جداً إلى الحد الذي لا يعود معه لأي ضرر إضافي تأثير أكبر. والفروق تبعاً لذلك تكون محدودة لجهة القرار الابتدائي الذي يمنع أو يدفع إلى الاعتداء.

على طاولة القرار في تل أبيب، تُطرح الأثمان التي قد تتكبّدها في حال عمدت إلى شن اعتداءات على لبنان. لا يتعلق ذلك فقط برد الفعل على الفعل الاعتدائي، بل أيضاً بما يمكن أن يجرّ إليه الرد والرد على الرد وسلسلة الردود المتبادلة. وهذا ما يفسر انكفاء إسرائيل عن لبنان طوال السنوات الماضية، بعدما كان مستباحاً لاعتداءاتها، بسبب أو من دونه.

على هذه الخلفية، يمكن فهم ما يصدر من المواقف

> رغم القدرة الإيذائية لإسرائيل إلا ان لدى حزب الله ما يكفي لمنع العدو من المبادرة

والتصريحات الإسرائيلية التي تبرّر الانكفاء عن الساحة اللبنانية. وقد برز في الفترة الأخيرة أكثر من دليل على الارتداع وعلى مفاعيله وتأثيراته. ففي المواجهة على الحد البحري، والتي حال الردع دون تحوّلها إلى مواجهة عسكرية صاخبة، كان الإسرائيلي أمام خيارين: إما التراجع أو تلقّي أثمان الحرب. هذا كان كافياً لإسكات كل المطالبين بالتصلب في التفاوض ودفع المحكمة العليا إلى رفض التماسات طالبت بإبطال اتفاق الحدود البحرية. فبين الحرب مع حزب الله، والتراجع نسبياً في الحدود البحرية، الأفضل للمصالح الإسرائيلية الابتعاد عن هكذا حرب.

آخر مؤشرات الارتداع برز بعد إطلاق عشرات الصواريخ في اتجاه شمال فلسطين المحتلة في السادس من نيسان الماضي. في حينه، كان المجلس الوزاري المصغّر أمام المعضلة الآتية: يجب أن نرد في الساحة اللبنانية بما يردع مطلق الصواريخ عن تكرار فعلته، لكن مع عدم إثارة حزب الله وتحفيز اندفاعته للرد في المقابل. والمطلبان متناقضان بما يفسّر «سخافة» الرد الإسرائيلي.

في المقابل، تُطرح الأثمان على طاولة قرار حزب الله أيضاً. فقدرة إسرائيل على الإيذاء كبيرة، ما يدفع إلى موازنة القرارات والتعقّل في اتخاذها، وخصوصاً إذا كانت تتعلق بأفعال مبادر إليها وليست رداً على اعتداءات إسرائيلية. هذا «التعقل» الذي يقتصر عموماً على الموقف الدفاعي في مقابل العدو، جزء لا يتجزأ من فاعلية ردع حزب الله، وهو ما يرفع مستوى هذا الردع إلى حده الأقصى كونه ليس المبادر في العادة إلى خرق قواعد الاشتباك والتسبب بتصعيد، باعتبار أن قراراته دفاعية.

ما وصلت إليه قدرات حزب الله الإيذائية يمكّن من قول الآتي:

- لم تعد موازنة إسرائيل بين الجدوى والثمن لأي فعل من أفعالها العدائية في الساحة اللبنانية، مرتبطة وحسب بالفعل الاعتدائي نفسه ورد الفعل المباشر عليه من حزب الله، بل بما يمكن - أو لا يمكن - أن يتسبب به من مواجهة شاملة. ثمن الفعل الابتدائي الإسرائيلي بات يقاس بالحرب وليس بالاعتداء المباشر.

- إدراك إسرائيل، وهذا ما يجب التوقف عنده طويلاً، أن نظرية «باشر الآن حرباً بثمن أقل كي لا تدفع أثماناً باهظة لاحقاً» لم تعد صالحة للتطبيق. فالثمن الذي يقدر أن تدفعه الآن نتيجة المبادرة إلى شن مواجهة أو حرب وقائية في الساحة اللبنانية كبير ومؤلم ويكفي بذاته لردع المبادرة، حتى ولو كان الثمن لاحقاً أكبر. فبين الثمن الكبير جداً جداً والثمن الكبير بامتياز، يكون انتظار ما يحمله المستقبل أفضل.

- إدراك اسرائيل، وهنا تكمن حكمة أداء حزب الله وموقفه الدفاعي، أنها إن لم تبادر إلى الاعتداء، فإن معقولية الوقوع في مواجهة شاملة، مستقبلاً، تبقى غير حتمية، بمعنى أن قرار الحرب واللاحرب بيدها هي عموماً، وليس في يد حزب الله صاحب الموقف الدفاعي. وهذا المطلب، يتساوق مع المطلب الذي سبقه.

- إدراك إسرائيل مسبقاً أن حرباً عدائية مبادراً إليها، لا تنهي تهديد حزب الله ولا تمنعه من إعادة ترميم قدراته لاحقاً في حال لحق بها إضرار نسبي نتيجة الحرب. وفقاً لذلك، ستعود إسرائيل إلى التموضع نفسه، وحزب الله إلى التموضع نفسه. والثمن الكبير الذي سيُدفع في الحرب، إسرائيلياً، لا يعني أن الفائدة الكبيرة ستتحقق، والأمر كذلك من جهة حزب الله.

معادلة الردع، رغم كل ما يقال عنها من أنها سيّالة وغير مادية ولا يمكن قياسها، إلا أنها معادلة مادية رياضية في الوقت نفسه، وهنا مفارقة نظرية الردع: امتلك قدرة إيذاء وإرادة تفعيل هذه القدرة، واربط تفعيلها بأفعال عدوك ونياته، فتحصل بطبيعة الحال على قدرة ردعية تمنع العدو من تفعيل قدرة إيذائه.

ولينكر من ينكر، ديماغوجياً. في المحصّلة، نعم، لدى حزب الله قدرة ردعية، وهي وحدها التي تفسر انكفاء العدو عن لبنان طوال السنوات الماضية، وهو أيضاً، وهنا المفارقة قياساً بموقف بعض مَن في لبنان، أن إسرائيل لا تنفي ولا تنكر أن حزب الله يردعها عن الساحة اللبنانية. مع ذلك، قدرة الردع وحدها لا تمنع الحروب والمواجهات العسكرية، رغم صلابة الردع وقدرته الفعلية على فرملة المبادرات العدائية، إذ يمكن للردع أن يفقد فاعليته وتأثيراته، نتيجة «الأغلاط» التقديرية لمتغيرات قد يراها هذا الطرف أو ذاك مانعة للآخر من الرد أو تفعيل قدراته الإيذائية. وهو ما كادت إسرائيل توقع نفسها ولبنان فيه، بعد أن قدّرت أن المتغيرات في الساحة اللبنانية، كما في الإقليم، وفي أكثر من مرة، من شأنها أن تمنع حزب الله عن الرد على اعتداءاتها. وهو واقع، قد يشترك فيه الطرفان، أو طرف واحد وحسب، لكنه كافٍ بذاته أن يتسبب بحروب لا يريدها طرفاها ابتداءً. هذا الواقع، كذلك، يفسر الانكفاء عن الأفعال العدائية التكتيكية، خوفاً من التدحرج إلى الأفعال العدائية الكبيرة جداً. وهذا الواقع يفسر عمليات «جس النبض» الذي تعمد إليه إسرائيل بين الحين والآخر، وهو وجه آخر من أوجه الردع، الذي يعزّز انكفاءها عن لبنان.

تاريخ الإقطاع الشيعيّ من خلال سيرة يوسف الزين

أسعد أبو خليل *

تبعثر تاريخ لبنان باللغة العربيّة. في مرحلة المدّ القومي، كانت النزعة لكتابات تاريخ المنطقة العربيّة عبر منهج جامع يُعزّز القواسم المشتركة بين الشعب العربي (حتى فيليب حتي كتب تاريخ سوريا بما فيه لبنان وكان دائماً يوضّح أنّه تاريخ المنطقة التي أصبحت حديثاً لبنان). يمكن مثلاً أن تكتب تاريخاً لأوروبا أو تاريخاً لمدينة في دولة أوروبية، كما يمكن أن تكتب تاريخاً لقرية في لبنان، أو تاريخاً للشعب العربي، مع العلم أن القواسم المشتركة بين أفراد الشعب العربي أكبر بكثير مما يجمع بين الأوروبيّين. في مرحلة صعود الوطنيّة الضيّقة والشوفينيّة الوطنيّة، برزت في لبنان كتابات للتاريخ المحلّي، على نطاق القضاء أو القرية، مع الأخذ في الحسبان ما يجمع أبناء الطائفة. وهذا النوع من التاريخ غير ضارّ إذا ما ارتبط بتاريخ أوسع عن المنطقة، في سوريا أو في العالم العربي.

والصعود الشيعي السياسي في لبنان، كما صعود العنصر الأسود في أميركا، أنتج وعياً سياسيّاً وثقافياً وزهواً جديداً كان ممنوعاً عليه في مرحلة فرض الوعي الطائفي الواحد. الكتاب الذي بين أيدينا كتاب ضخم وطموح وموسوعي: «يوسف بك الزين: من جبل عامل إلى الجنوب اللبناني» بقلم منذر محمود جابر (والصادر عن مكتبة أنطوان). منذر جابر مؤرّخ مجتهد معروف وله مجلّد موسوعي ضخم وقيّم جداً عن «الشريط اللبناني المحتل: مسالك الاحتلال، مسارات المواجهة ومصائر الأهالي» والصادر عن مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة (كتبتُ مقالة مراجعة عنه في مجلّة الدراسات الفلسطينيّة بالإنكليزية). منذر جابر ليس مؤرّخاً عادياً. هو يغوص في المراجع وينبش فيها إلى درجة مذهلة، وهذا، بعكس نفساً طويلاً وحرصاً علميّاً وجهداً فائقاً وأمانة عمليّة. منذر جابر لا يباشر في الكتابة قبل أن يكون قد أتمّ الإحاطة بالمراجع، وخصوصاً بالعربيّة. وهو يقارن المعلومات بين المراجع كي يعطي القارئ صورة شاملة عن الموضوع. سأسجّل أدناه بعض الملاحظات عن الكتاب الجديد المفيد عن يوسف الزين ودوره في جنوب لبنان.

1) كان أفضل لو أن العنوان أورد اسم يوسف الزين خالياً من الشهابيّة لسيرة عادية لشخصيّة سياسيّة هامّة بل هو أقرب إلى كتاب مرجعي عن تاريخ جنوب لبنان في النصف الأوّل من القرن العشرين. الكمّ المعرفي الهائل في الكتاب سيحفّز، أو يجب أن يحفّز، لكتابة عدد من الكتب وأطروحات الدكتوراه عن جبل عامل. وهناك، برأيي، متعة خاصّة في قراءة حواشي الكتاب لما تتضمّنه من معلومات إضافيّة مهمة لم يتّح حجم الكتاب ضمّها في متنه. والمؤلّف نجح في الإشارة إلى كل ما كُتب عن المرحلة، من صحف وكتب وأرشيف أجنبي وحتى الأرشيف الخاص بعائلة الزين.

3) يجب أن نقرّر كيف نتعامل مع مرحلة الإقطاع الشيعي في حياة جنوب لبنان. هل نتعامل معها باعتذاريّة تنفي عن المرحلة جَوْرها وظلمها أم نحن نبجّل في الحديث عنها لنقارن مع مساوئ المرحلة الحالية من الزعامة السياسيّة للجنوب ولشيعة لبنان؟ منذر جابر خلط بين الحاضر والماضي في تقديمه لمشروع الكتاب إذ يقول: «وهذه الصورة المسخوطة للزعامات الجنوبيّة، تستثمرها حالياً القوى السياسيّة القائدة في الجنوب، والتي تنظر إلى ما سبق زمنها» من تاريخ الجنوب اللبناني على أنها «جاهليّة» في هذا التاريخ، غمرَ الجنوب خلالها ليلٌ بهيمٌ عميم» (ص. 33). هنا أختلف مع تقييم جابر. أنا أرى أن حركة «أمل» وحزب الله يتعاملان مع تاريخ الجنوب بالكثير من الاعتزاز الطائفي، ومن نزوع لتجنّب نبش الجروح والقبور وإثارة الخلافات. كيف يقول جابر إن القيادة الحاليّة في الطائفة الشيعيّة تتعامل مع المرحلة الماضية على أنها جاهليّة، وتبنيه برّي يصرّ لسنوات على ضمّ ممثّل عن عائلة الزين نفسها، وعن عائلة عسيران، كما أن حزب الله تفاوض في الماضي مع كامل الأسعد، الذي مثّل في زمانه المثال الأكثر إثارة للجدل والاستفظاع ـ وعن حقّ. الثنائي «الشيعي» (والتسمية طائفية) لا يريد تأجيج أيّ من الصراعات في داخل الطائفة وخصوصاً أنه ينجح في الفوز بكل المقاعد الشيعيّة في الانتخابات. لكن كيف نتعامل مع مرحلة الإقطاع؟ هذه مسألة عنتني شخصيّاً عبر السنوات. نشأتُ على علم بأن عمّي الراحل، ناجي أبو خليل، تمرّد على أبيه (جدّي لأبي، محمد أسعد أبو خليل) لأنه كان إقطاعيّاً. ولا يزال أنصار حركة «أمل» يعيّرونني بإقطاعية جدّي (والكتاب يورد اسم جدي) ودوره مع زعماء إقطاع تلك المرحلة). لكن هل كان هناك إقطاع في جنوب لبنان؟ وتناقشتُ أخيراً في ذلك مع العزيز، صائب الزين، حفيد يوسف الزين. أنا أرى أن مصطلح الإقطاع يصلحُ في هذه الحالة عن تاريخ جنوب لبنان، وإن كان يختلف عن سمات الإقطاع الأوروبي. الإقطاع الأوروبي كان نسقاً من التملّك الذي مارس فيه رجال الإقطاع دور الدولة المركزيّة بالكامل. في الجنوب اللبناني، كان الزعيم الإقطاعي يمارس دوره ويحصل على ولاء السكّان بالتزاوج مع سلطة مركزيّة للدولة العثمانية أو دولة الاستعمار الفرنسي أو مرحلة الاستقلال. أي إن مرتبة الزعيم الإقطاعي السياسيّة والتقريريّة لم تصل إلى مرتبة زعماء الإقطاع في أوروبا. لكن هذا لا يجب أن يخفّف من ظلم المرحلة وقساوة الفروقات الطبقيّة في المجتمع. ما سمعتُه في طفولتي عن المرحلة، وحتى عن سمات في مرحلة سابقة اغتيال في عام 1905. يذكر الأرشيف العثماني، حسب ما أورد جابر عرضاً، الشكاوى التي تراكمت من قبل أهالي الكوثريّة التي ابتاعها إسماعيل من آل سرسق (وكان آل سرسق قد ابتاعوها من آل الأسعد). يعترف تقرير الأرشيف العثماني أن زعامات الأهالي في الكوثرية اعترضوا على «عدم المحافظة على شرفهم وأعراضهم» (ص. 81). عائلة الزين لامت خصوم إسماعيل السياسيين، أي آل الأسعد. ويقول لي رجل جنوبي متحدّر مباشرةً من واحد من الذين اغتالوا إسماعيل الزين أن الدافع كان لأن إسماعيل كان «يستعبد الناس ويمارس التفخيت»، الذي كان شائعاً في إقطاعات كسروان، أي عادة مرور العروس على الزعيم قبل زواجها). و«التفخيت» لم يكن شائعاً في الجنوب. وأصدر رجل دين من آل إبراهيم (محمد إبراهيم، جد محسن إبراهيم) فتوى بقتل إسماعيل الزين وقام رجلان من النميريّة بقتله (محمد حمادة هرب إلى الأرجنتين وعلي جعفر سنان). وضاح شرارة في «الأمة القلقة» أخذ برواية آل الزين عن دوافع البغض من عائلات إقطاعيّة منافسة. أمّا عباس جعفر الحسيني (المتحدّر من عائلة إبراهيم) فقد كتب رواية تاريخيّة مشوّقة (بعنوان «فتوى في بيت إبراهيم») يتحدّث فيها عن صيت الظلم والتسلّط الذي شابَ زعامة إسماعيل الزين (غاب هذا الصيت بالكامل في سيرة ابنه السياسيّة من بعده). أفردَ جابر قسماً للحديث عن الاغتيال لكنّ الموضوع كان يحتمل المزيد من التمحيص والتدقيق وخصوصاً أن الروايات عنه تختلف. من الأكيد أن الحادثة شكّلت عبئاً على يوسف الزين وهو يرسم دوره السياسي.

5) تدفعنا قراءة الكتاب لتبيان فروقات كبيرة بين شخصيّات زعماء الإقطاع. وشخصيّات الزعماء كان لها أثر كبير على زوال الظاهرة (مقارنة باستمرار الزعامة الجنبلاطيّة مثلاً). شخصيّة كامل الأسعد (آخر زعيم أسعدي) نفّرت الكثير من الجنوبيّين منذ انطلاقته في الستينيّات. كان زعماء الإقطاع أقرب إلى الناس قبله. أبوه مثلاً كان أحياناً يوقف سيارته الكاديلاك في وسط بيروت كي يصطحب معه حمّالاً جنوبيّاً استوقفه في الطريق. صبري حمادة كان قريباً جداً من أهل منطقته (رأيتُه وأنا طفل وهو يتعامل معهم من دون العجرفة التي وصمت شخصيّة كامل الأسعد). عادل عسيران كان نخبويّاً وصارماً ولم تكن لديه المقدرة على الاقتراب من الناس (كان يمنع في مجلسه التشرّق بالعلكة أو اللعب بالمسابح). يوسف الزين، على ما يقول جابر وهو محقّ، كان يتحدّث عن معاناة عمّال التبغ ما تحدّثت عنها في ما بعد بعض أدبيّات الأحزاب اليسارية والقوميّة. تحدّث الزين عن الفلاح والفقراء بخطاب غير موجود في خطب كامل الأسعد وعسيران وحتى حمادة. يقول في تقرير له من عام 1936: «إذا قلنا الفلاح في الجنوب، فقد أتينا بعنوان يدلّ مدلولة على الفقر والشقاء والجهد والبلاء، وعلى البؤساء الذين أهملتهم الحكومة التي تولّت أمرهم... وإنني أعرف الكثير من الفقراء منهم وجلّهم فقراء» (ص. 650). ويقول في مقطع آخر: «للعيلة الواحدة ونفوسها ثمانية أو تسعة، لحاف واحد لبرد الليل، على حصير واحد من البابير الجافي، وما ذاك إلا لعدم وجود المال الذي كان يؤمّل قبضه من ثمن دخانه» (ص. 27). جريدة «المعرض» قالت عنه: «أمّا إذا كان زعماء الجنوب يقطّبون أساريرهم لدى ذكر يوسف الزين، فأساريرهم الفلاحين فيه لا تزال تشرق لدى ذكره» (ص. 27). أجزم أن كامل الأسعد، مثلاً، لم يعرف فقيراً واحداً في حياته، وأجزم أنه لم يعرف شيئاً عن حياة الفقراء في الجنوب. في المقابل، يتحدّث يوسف الزين عن لباس الفلاحين فيقول: «معظم أكسية الفلاحين من خامیات الثياب، وسوق الثياب العتيقة في بيروت تعرف مقطوعية جبل عامل منها» (ص. 651). والحياة الشخصيّة والموقف من العامّة كانا علامتين في صعود أو سقوط الزعماء، كما حلّ بزعامة كامل الأسعد التي بلغت أوجها في الستينيّات. وفي الحياة الشخصيّة، تزوّج يوسف الزين من نساء أربع من عائلات فلاحيّة في كفررمّان، بعد زواجه الأوّل من ابنة عمّه (في عام 1955، قام يوسف الزين بتطليق نسائه جميعاً لأسباب تتعلّق بالميراث، ص. 44). زعماء الإقطاع الآخرون حرصوا على التزاوج في ما بينهم (أخت كامل الأسعد تزوّجت من صبري حمادة، وآل عسيران تزاوجوا مع آل الخليل، إلخ.).

6) لا يجب أن نبالغ في الدور السياسي لكل زعماء الشيعة والسنّة على حدّ سواء في لبنان ما قبل الطائف. زعماء الموارنة حكموا لبنان بالتوافق مع سفارات الغرب. كانت القيمة السياسيّة للزعيم تتأتّى من مدى التحاقه بزعيم ماروني نافذ. زعامة كاظم الخليل استفادت من صعود كميل شمعون ومن علاقاته العربيّة والإيرانيّة والتي وظّفها في خدمة زعامة آل الخليل في صور. يوسف الزين كان من حصّة إميل إدّه، كما كانت الزعامة الأسعديّة تتأرجح بين الزعمات المارونيّة المختلفة. ولم يستقرّ المقام لكامل الأسعد في رئاسة المجلس إلا بعد أن طلع في تكتّل «الوسط» (مع صائب سلام) بصيغة المرشّح سليمان فرنجيّة للرئاسة. كافاه فرنجيّة في كلّ عهده وبقي رئيساً للمجلس فيه. لكنّ الولاء لزعامات مارونيّة مثل إميل إدّه، والتعايش مع الانتداب الفرنسي، تناقضا مع مواقف عروبيّة وسوريّة للزعماء الشيعة (وهذا يسري على جدّي الذي حضر مؤتمر وادي الحجير مع يوسف الزين وكامل الأسعد وإسماعيل الخليل وغيرهم، ص. 176). تواءم هؤلاء في ما بعد مع الانتداب الفرنسي: وإلامام عبد الحسين شرف الدين زار الجنرال غورو في عام 1920 وتكلّم باسم وجهاء جبل عامل برئاسة كامل الأسعد («فذكر ميلهم للدولة الفرنسيّة، وأطرى على ما امتازت به هذه الدولة من العدالة والحريّة، وما لها من فضل على الإنسانيّة» (ص. 162، جابر يعتبر ذلك من باب «الواقعيّة»). وزعماء السنة لم يختلفوا في قاعدة استفادة الزعامة من القرب من زعامات مارونيّة مؤثّرة، وكلّهم اصطدموا بالزعيم الماروني النافذ عليهم. صائب سلام ترك الحكم في عام 1973 عندما أدرك أن لا صلاحيات له في الإصرار على أي موقف إذا اختلف الموقف مع مشيئة ومزاج الرئيس الماروني.

7) نلاحظ ظهور سير لزعماء وحكّام من قبل مؤرّخين، وهذا حسن. لكن: من يكتب سير «الناس اللي تحت»؟ من مظاهر ضعف هذه السيرة أنها أهملت نمط حياة الفقراء والفلاحين في الجنوب باستثناء مزارعي التبغ، لأن يوسف الزين أولى الموضوع اهتماماً كبيراً وألقى فيه خطباً عاطفيّة وسياسيّة وكتب تقارير عن أحوالهم، حاضّاً الحكومة على التدخّل لإصلاح معيشتهم. عندما كان حنا بطاطو يعدّ كتابه عن سوريا، أصيب بضيق شديد لأنه لم يجد في تاريخ سوريا في القرن التاسع عشر ما يعطي فكرة عن حياة الناس العاديّين والفقراء. كان يقول لنا: فقط كتاب الحلّاق البديري أعطانا لمحة عنهم. سير زعماء الإقطاع تحتاج إلى سير مُرافِقة عن الفلاحين والفقراء. نحتاج أن نفهم الظروف التي أدّت بعد الحرب الأهليّة إلى القضاء، كلياً، على زعماء الإطاع في عكّار (سليمان العلي كان ظاهرة متسلّطة ومجرمة بحدّ ذاتها، وكان واحداً من عشرين سنيّاً وعده بشير الجميّل برئاسة الوزراء) وفي جنوب لبنان تمّ القضاء على الإقطاع بالكامل. تمّ نبش قبر أحمد الأسعد وتم التمثيل بما تبقّى من جثّته. لماذا جرى ذلك وما سبب هذا الغضب الدفين؟ الكتاب لا يجيب عن ذلك. وكان يجب التفريق: لم يكن كامل الأسعد أو عادل عسيران أو كاظم الخليل يسعون لتحسين شروط عمل عمّال التبغ، كما فعل يوسف الزين. ولم يكن الشيوعيّون وحدهم من قاوموا ثقافة الإقطاع في الجنوب بل سبقهم إلى ذلك القوميّون العرب (من «البعث» ومن حركة القوميّين العرب). كان كامل الأسعد يمقت كل ما له علاقة بالبعث العراقي في حقبته الجذرية في أوائل السبعينيّات (قبل رئاسة صدّام حسين). موسى شعيب لم يستكنْ في التحريض ضد الإقطاع قبل أن يقتله النظام السوري. هو الذي أنشد: «يا قصوراً عشّش الإثمُ على أسوارها جيلاً فجيلاً، مجدك الزائف شيّدناه والجوع طويلاً، كم زرعنا في المدامیك قتيلاً؟». لا تكتمل سيرة أي زعيم جنوبي، بمن فيهم يوسف الزين، من دون سبر الفقراء الذين أنتجوا، بسبب حرمانهم، حركة «أمل» وحزب الله (وبصرف النظر عن التجربتيْن من ناحية حمل هموم الفقراء). هل تجوز المفاضلة أو المقارنة بين إقطاع الأمس وزعامة نبيه برّي وما رافقها من ثراء ونفوذ هائلَيْن لم يسبقه إليه زعيم جنوبي من قبل؟ الجواب: لا، لسبب بسيط. زعامة نبيه برّي ليست نتاج وراثة عائلية بل هي نتاج ظروف سياسيّة وعسكريّة دفعته إلى موقع الصدارة في سياق الحرب الأهليّة. وفي تضاد مع ثقافة الإقطاع، لن يستقيم لبرّي توريث خليفة له، وهو لـ«الأمانة» أعلن نبذه للتوريث ولم يسمّ أياً من أبنائه على طريقة بيت معوّض وفرنجية وجنبلاط. ولن يخلف نصرالله ابنه. هذا أكيد.

8) يصف جابر الحركات المسلّحة التي نشأت ضد الاستعمار الفرنسي، بما فيها حركة أدهم خنجر الذي حاول اغتيال الجنرال غورو، بـ«العصابات». لا بل إنه يقول إن ذلك ترك حالة من غياب الأمن و«انتشار قطاع الطرق» وينقل عن سليمان ظاهر قوله إن الحركات تلك كانت تضمّ «أوباشاً وأخلاطاً» (ص. 164) من الطبيعي أن ترتاع زعامات الإقطاع من بروز حركات مسلّحة تضمّ فقراء الجنوب، كما ارتاعت سلطات الاستعمار الفرنسي. لا يبدي جابر إعجاباً بشخصيّة أدهم خنجر، الذي عظّمته وقدّرته الثورة العربيّة في سوريا (وحاول أتباع سلطان باشا الأطرش تحريره من السجن لكنه أُعدم، راجع كتاب مايكل بروفنس، «الثورة السوريّة الكبرى وبروز القوميّة العربيّة»، ص. 3-5).

9) يبدو جابر مصرّاً على فصل الأهواء السياسيّة المبكرة للشيعة عن السنّة، ويقول إن الشيعة لم يُصدموا من جراء ضمّهم إلى لبنان الكبير (ص. 220). لكنّ خطب سليم حيدر في مناقشات أوّل دستور للبنان كانت واضحة في توجّهها السوري-العربي.

هناك كمّ هائل من المعلومات المفيدة والقيّمة والجديدة في الكتاب الموسوعي الهام، لكننا احتجنا إلى المزيد عن شخصيّة يوسف الزين. تشمل السيرة مواضيع كثيرة جداً (واحياناً تستفيض في حادثة معيّنة مثل جرّ مياه نبع الطاسة)، لكنّ الكتاب الموسوعي دليل غزير سيستفيد منه جيل جديد من الباحثين والباحثات. هذا الكتاب ليس نتاج بحث عادي بل نتاج سنوات من العمل المضني الذي سيفيدنا على مدى سنوات مقبلة.

* كاتب عربي - حسابه على تويتر @asadabukhalil

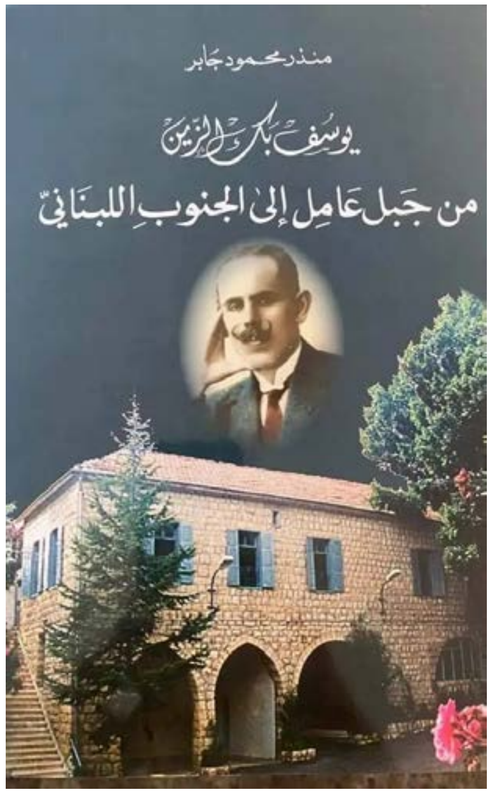

تلاحظ ظهور سير لزعماء وحكّام من قبل مؤرّخين، وهذا حسن. لكن: من يكتب سير «الناس اللي تحت»؟ من مظاهر ضعف هذه السيرة أنها أهملت نمط حياة الفقراء والفلاحين في الجنوب باستثناء مزارعي التبغ

أي حوار؟!

سعد الله مزرعاني *

أسارع إلى أن الحوار المقصود هنا، هو ليس ذلك الذي ينادي به طرف من أطراف المجلس النيابي، من أجل عقد تسوية تفضي إلى انتخاب رئيس الجمهورية العتيد. هذا النوع من الحوار هو جزئي ومقتصر على اسم الرئيس المتعثّر انتخابه. وهو بالتالي، قاصر عن الوفاء بمتطلبات الولوج السليم والضروري في مسار التعامل مع الأزمة الطاحنة التي يعاني منها لبنان وشعبه، منذ حوالي أربع سنوات: على نحو مأساوي، كوارثي، ومفتوح على أسوأ الاحتمالات.

الحوار المطلوب، والذي يمكن له وحده أن يقود إلى معالجة إنقاذية، هو الذي يبدأ بالبحث في أسباب الأزمة والمسؤوليات، ومن ثم في بلورة خلاصات تفضي، بدورها، إلى خطط وبرامج وسياسات من شأنها وقف التدهور في المرحلة الأولى، واعتماد معالجات إنقاذية ناجعة في المرحلة الثانية.

في العنوان الأول، المتصل بالحوار المنشود، يمكن الملاحظة، بسهولة، أن أطراف السلطة والمعارضة السلطويّة، وكذلك الأفراد الجدد ممن يطلق عليهم «نواب التغيير»، كل هؤلاء، بشكلٍ عام، يحرصون على حصر الحوار في نطاق النظام السياسي القائم. وهم، رغم تباينات جزئية، يصبّون جهدهم، بشكل أساسي، لتعديل توازنات ذلك النظام فحسب. ولذلك يتركز نقدهم على السياسات والمواقف والعلاقات، بشكل جزئي، من دون تجاوز ذلك إلى ما هو جوهر المشكلة وأساس استمراريتها وتفاقمها. إنّ هذه المقاربة هي التي انطلق منها أطراف السلطة منذ حوالي ثلاثة عقود ونصف العقد في تعاملهم مع تسوية «الطائف»، وخصوصاً مع إصلاحات تلك التسوية. فرغم ترحيل البنود الإصلاحية من «الطائف» إلى الدستور، فقد تمّ تعطيلها عن سابق تصور وتصميم.

أدّى ذلك، بين أمور أخرى، إلى بتر تسوية «الطائف» وتشويهها، وإلى تضييع مركز القرار وتشتيته (عبّر عن ذلك الرئيس نبيه بري، دون أن يشير إلى مسؤوليته وسواه، حين صرّح لـ«الأخبار» منذ يومين بالقول: «بتنا نعتمد على الخارج في انتخابات الرئاسة. كل طرف يغني على ليلاه ويمتلك فيتو وله شروط»). تفاقم هذا الأمر مع تنامي دور التيار العوني الذي لم يتردد زعيمه وممثلوه في المطالبة بتعديل الدستور لإلغاء المواد الإصلاحية من أساسها! نجم عن هذا البتر استشراء التقاسم والتحاصص باسم الطوائف والمذاهب، ونشوء الدويلات على حساب الدولة، وتعطيل المؤسسات باسم «الميثاقية»، وأشكال أخرى من البدع من نوع «حصة الرئيس» و«الثلث المعطّل» واحتكار المواقع والوزارات، وغياب كل أشكال المحاسبة... وصولاً إلى سرقة موارد الدولة ونهب المال العام وودائع اللبنانيين مقيمين ومغتربين. وفي مجرى هذا التنكر السافر والمتمادي لتطبيق الدستور ومستلزمات التقدم، كان يتفاقم الدور الخارجي مع تعاظم الأزمة الاقتصادية بالنهب والديون والفساد والسرقة والتحاصص، ومع تفاقم الصراعات الإقليمية التي تغذيها واشنطن لمصلحة هيمنتها على المنطقة ولخدمة أداتها الأساسية فيها: العدو الصهيوني.

ما ذكرناه من الأسباب، وما اعتُمد من مقاربات، واستُخدم من أشكال التضليل باستنفار العصبيات لحجب الحقيقة وتضييع المسؤوليات، أدى إلى بروز مفارقة خبيثة تتمثل في تحييد السبب الأساسي عن إنتاج الأزمة، ليُصار إلى حصر المسؤولية في الممارسة والأخطاء الفردية الموزّعة هنا وهناك، من دون النهج الذي استندت إليه هذه الممارسة والأخطاء: أي من دون الاقتراب من أصل الخلل فيما حصل؟

يقودنا هذا الاختلال في مقاربة الأزمة إلى نتائج تزداد خطورتها يوماً بعد يوم. أولها: التصويب على النتائج من دون الأسباب. ثانيها: تسهيل الإفلات من أي عقاب أو مساءلة بشأن ما يكابده اللبنانيون من مآسٍ وكوارث وما يتهددهم. ثالثها: ضمان عدم المحاسبة على ما يرتكبه المسؤولون من مخاطر على سيادته ووحدته، وحتى على وجوده نفسه! بالمقابل، فقد تمكنت قوى السلطة التي انبثقت عن التحالف بقايا الإقطاع والبورجوازية الكبيرة وأخطبوط الاحتكارات والمصارف... عبر ما خبرته وراكمته من أساليب التضليل، وتغذية وإثارة العصبيات الطائفية والمذهبية، وتسخير وتقاسم موارد الدولة، والاستقواء بالخارج... تمكنت من الاحتفاظ بالسلطة، مواصلة بكل وقاحة استخدامها، وكأن شيئاً لم يحدث، وفي خدمة استمرار سيطرتها، ووفق المنهج نفسه والممارسات نفسها! ساهم في ذلك عاملان آخران: الأول انخراط كامل لواشنطن وحلفائها الغربيين والعرب من أجل استغلال الأزمة وتوجيه مسؤولية حصولها حصرياً، على أطراف دون سواهم... وذلك لأهداف أميركية وإسرائيلية محضة: حصر المسؤولية بالمقاومة والتحريض على سلاحها. الثاني غياب المعارضة الوطنية وعجزها على أن تتكتّل في صيغة جبهويّة على أساس برنامج وأولويات وخطة وقيادة، لرفع صوت المتضررين وهم الأكثرية الساحقة من الشعب اللبناني، وجعل حضورهم فاعلاً في تحديد المسؤوليات وبلورة المعالجات.

إنّ فئوية القوى المسيطرة، والخلل في النظام السياسي، يمنعان غالباً، في المنعطفات، إمكانية بلورة تسويات داخلية في الشؤون السياسية أو الاقتصادية أو الأمنية. ودفع ويدفع تدخلُ القوى الخارجية، وخصوصاً واشنطن، ذات النفوذ الطاغي والتأثير الكبير على أكثرية قوى السلطة، نحو مزيد من الانهيار طالما لم يجرِ تبني الأجندة الأميركية وأولوياتها في لبنان. ولم يكن من قبيل الصدفة أن التدخل الأميركي هو الذي حسم مسألة ترسيم الحدود البحرية مع العدو الصهيوني (قلّص من خسائر الترسيم تدخل المقاومة). أمّا كل المسائل الأخرى فمعلقة بسبب التعطيل الأميركي: من تأمين الحد الأدنى من الخدمات، إلى تحقيق المرفأ، إلى محاسبة المسؤولين، إلى وقف التدهور بقطع المساعدات الخارجية، وبمنع دول صديقة منافسة من تقديم المساعدات للبنان...

إنه، إذاً، خلل داخلي تغذّى بالفئوية وبالعصبيات وبسوء استخدام السلطة وتسخيرها، وبالإصرار على نظام، أثبت قيامه واستمراره ونقله إلى بلدان أخرى، أنه جزء من أدوات الخارج الاستعماري لإبقاء منطقتنا وشعوبنا ضعيفة ومفكّكة وعاجزة عن إدارة شؤونها وصيانة استقلالها ووحدتها وثرواتها.

ما يتطلبه لبنان لا أقل من حوار تأسيسي: أولاً، لإعادة وحدة القرار الشرعي الموزّع حالياً بين «الرئاسات» والوزارات... والخارج. ثانياً، لن يتم ذلك بدون اعتماد آلية تنفيذية متكاملة للمباشرة، كمرحلة أولى، في تطبيق الدستور، وخصوصاً ما نصّت عليه المواد 22 و24 و95. ذلك يشكل محطة إجبارية نحو تحرير السلطة من القيد الطائفي الذي أدى استمراره، كما أشرنا، إلى بتر آلية الإصلاح من خلال تحويل المؤقت إلى دائم، وبالتالي إلى تعطيل وحدة القرار المركزي، ونشوء الدويلات، والتحاصص، ومنع المحاسبة... وإلى النهب والفساد والكوارث التي تطحن اللبنانيين، وتهدد بلدهم ومصيرهم جميعاً بالأسوأ. ستكون هذه المقاربة، بالضرورة، ذات ديناميكية مفتوحة على التقدم والتطور، ومؤهلة لإتاحة البحث في كل العناوين والمشكلات والإشكالات، وللتعاطي مع كل التحديات الماثلة والمحتملة استناداً إلى المصالح الحقيقية اللبنانية العليا.

* كاتب وسياسي لبناني

الحدث

مدنيّو السودان «خارج التغطية»: الهدَن تتوالد... ولا تفتح أفقاً

الخرطوم - **مي علي**

لم تُسلم الهدنة الجديدة بين الجيش السوداني وقوات «الدعم السريع» عرقلة جهود الإجلاء، من الخروقات، وخصوصاً في أم درمان وأحياء من مدينة الخرطوم بحري وشرق الخرطوم. هكذا بدا وكان إعلان طرفي النزاع التزامهما بتجديد الهدنة لـ72 ساعة، ما هو إلا إرضاء للمجتمع الدولي والإقليمي، قبل أن يعود الطرفان إلى تبادل الاتهامات بخرقها. وفي هذا الإطار، حذّر الجيش، في بيان، من محاولات «المتمرّدين» عرقلة جهود الإجلاء، متّهماً «الدعم السريع» باستهداف طائرة إجلاء تركية أمس، في مطار «وادي سيدنا العسكري» في مدينة أم درمان، ما أدى إلى تضرّر خزانات الوقود في الطائرة وإصابة أحد أفراد طاقمها. في المقابل، نفت «الدعم» استهدافها أيّ طائرة في «وادي سيدنا»، لافتةً إلى أن هذه المنطقة خارج سيطرة قواتها، ومتّهمةً القوات المسلّحة بإلصاق التهم بها لتخريب علاقتها مع الدول الصديقة.

ويأتي هذا التطوّر في وقت يقدّر فيه مراقبون عسكريون تحوّل «الدعم السريع» إلى ما يشبه جزراً معزولة بعضها عن بعض، ولا سيما بعد قطع هيئة الاتصالات الاتصال عن معظم قياداتها، ما جعل كلّ قوة ترجع إلى قائدها الميداني وتقديراته للموقف. كذلك، تحدّث شهود عيان في مناطق شمال الخرطوم، لـ«الأخبار»، عن مغادرة بعض عناصر «الدعم» ميدان المعركة بزيّ مدني، وتخليهم وراءهم سياراتهم المدجّجة بالسلاح، خوفاً من قصف الطائرات، وخاصة في المناطق المكشوفة والبعيدة عن المنازل.

وفي ظلّ ضبابية المشهدين الميداني والسياسي على السواء، وتزايد خشية القوى المدنية المناوئة للإسلاميين، من عودة هؤلاء على ظهر العسكر لتصدّر المشهد، توافقت كيانات مدنية وأحزاب سياسية ونقابات منتخبة ومنظمات مطلبية ولجان مقاومة، بالإضافة إلى حركات مسلّحة، على العمل من خلال هيئة موحّدة أطلق عليها «الجبهة المدنية لإيقاف الحرب واستعادة الديموقراطية». ووضع الائتلاف الجديد مجموعة أهداف ينبغي تحقيقها، تبدأ بوقف فوري للحرب، وخروج المؤسّسة العسكرية بالكامل من الحياة السياسية والاقتصادية، والعمل على استعادة مسار التحوّل الديموقراطي، والتصدّي لمخطّطات النظام البائد لاستعادة سلطته وعسكرة الحياة، ومواجهة خطابات الانحياز والاصطفاف على أسس إثنية وقبلية ودينية، ورفض كلّ أشكال التدخّل الخارجي في الشؤون الوطنية، ما عدا المساعي الرامية لوقف الحرب. وأعلنت الجبهة أنه لتحقيق أهدافها، ستعمل على استخدام الوسائل السلمية المتاحة، والعمل على استعادة مسار التحوّل الديموقراطي، والتصدّي لمخطّطات النظام البائد لاستعادة سلطته وعسكرة الحياة، ومواجهة خطابات الانحياز والاصطفاف على أسس إثنية وقبلية ودينية، ورفض كلّ أشكال التدخّل الخارجي في الشؤون الوطنية، ما عدا المساعي الرامية لوقف الحرب. وأعلنت الجبهة أنه ملتزمة بتطوير الآليات وتوسيع قاعدة المشاركة لتشمل المزيد من القوى والهيئات الوطنية، ما خلا حزب «المؤتمر الوطني» المنحلّ.

وعلى الرغم من التفاف كيانات مدنية واسعة حول الائتلاف الجديد، إلّا أن محلّلين يرون أن الوقت غير مناسب للأهداف المطروحة، إذ من غير المتوقّع أن تجد الدعوة إلى وقف الحرب في الوقت الراهن، استجابة من طرفي الصراع. كما أنه من المستبعد انسحاب العسكر من الحياة السياسية بعد انتهاء المعركة، سواء خُسمت لصالح الجيش أو «الدعم السريع». ويعتقد بعض هؤلاء، ممّن يقفون موقفاً مؤيّداً للجيش في هذه المعركة، أنه كان من الأجدى تحييد القوات المسلّحة كمؤسّسة، ودعمها في معركة «التخلّص من المليشيات الموازية ومن الإسلاميين في أن واحد»، حتى تكون نواة لجيش قومي مهني بعد انتهاء الحرب، يجري، على أساس دستور دائم، تحديد مهامه وحصرها في المحافظة على أمن البلد وحماية الحدود، وبالتالي الابتعاد عن الحياة السياسية.

وإذ بدا أن القوى المدنية أرادت قطع الطريق أمام بقايا النظام المخلوع، فإن ثمّة تيارات واسعة في القوات المسلّحة ترفع شعار «لا للكيزان ولا للمليشيا»، ما يشي بأن عودة الإسلاميين إلى السلطة عبر ذراعهم العسكرية في الجيش، قد لا تكون ممهّدة كما يعتقد الكثيرون منهم، وإن كان نجحوا، بحسب بعض القراءات في إشعال الحرب. كما أن أطماع قائد الجيش، الفريق أول عبد الفتاح البرهان، الشخصية، وتوقه للسلطة، يجعلان من المستبعد تسليمه السلطة إلى أيّ كيانات حزبية في حال حسمت القوات المسلّحة المعركة لصالحها.

أميركا في بلاد النيل: سياسة الغموض (غير) البنّاء

خضر خروبي

منذ اللحظة الأولى لوصول جو بايدن إلى البيت الأبيض، شكّل عهد الرئيس الديموقراطي تحدّياً لمسار دبلوماسي سياسي بدأه سلفه دونالد ترامب على مستوى العلاقات الأميركية - السودانية. فتطبيع العلاقات بين الخرطوم وواشنطن، المحمول على اكتاف نسخة سودانية مقتبسة في جانب كبير منها من أحداث «الربيع العربي»، شكّل علامة فارقة في عهد ترامب، بعد نحو 30 عاماً من القطيعة، ظلّلتها عناوين «العقوبات» و«حقوق الإنسان»، و«الإرهاب»، ولا سيما أن الرئيس السابق حمل سمات الرجل القادم من عالم المال والأعمال. ووفق صيغة هي أقرب إلى نهج عقد الصفقات التجارية، جاءت عودة العلاقات الدبلوماسية، بعد إطاحة نظام عمر البشير لحساب سلطة انتقالية مكوّنة من العسكريين والمدنيين عام 2019، ضمن سلّة شروط أميركية مطلوبة من الخرطوم تشمل «نبذ الإرهاب»، ودفع تعويضات لأسر قتلى ومصابي تفجير السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا خلال التسعينيات، والهجوم على المدمّرة الأميركية «كول» مطلع الألفية الثالثة من قِبَل تنظيم «القاعدة»، وهي تعويضات مقدّرة بنحو 335 مليون دولار، إضافة إلى إقامة علاقات مع إسرائيل. شرطان أوفى بهما السودان، فضلاً عن شروط أخرى تخدم نهج أميركا الدعائي في شأن «تعزيز القيم الديموقراطية»، متّصلة أصلاً بإنجاز عملية «انتقال سياسي» بعيداً من سلطة الجيش، عوامل داخلية وأخرى خارجية. في المقابل، جاءت «المكافأة» من جانب الإدارة الأميركية السابقة من خلال الموافقة على رفع اسم السودان من قائمة واشنطن لـ«البلدان الراعية للإرهاب».

ومع مجيء بايدن، وما رافق ذلك من مستجدّات حاقت بالمشهد السوداني بعد انقلاب قائد الجيش، عبد الفتاح البرهان، على الحكومة المدنية برئاسة عبد الله حمدوك في تشرين الأول 2021، بدا كأن جانباً كبيراً من المراوحة راود الملفّ، مراوحةً مَنَعت استكمال التفاهمات الثنائية بين واشنطن والخرطوم، والثلاثية بينهما وبين تل أبيب، سواء تلك المتعلّقة بنقل التطبيع السوداني - الإسرائيلي من بُعده الاقتصادي الغالب، إلى حيّز الاعتراف الدبلوماسي الكامل، أو الحفاظ على تعهّدات الإدارة السابقة على صعيد تكثيف الدعم الاقتصادي. في الظاهر، سعى العهد الجديد إلى أن يُظهر للجمهور الأميركي أنه ملتزم بوعوده الانتخابية بإعادة «الدمقرطة» على الأجندة العالمية لبلاده. أمّا في الباطن، فتخوض واشنطن معركتَين في آن: تشجيع السودان على تعزيز علاقاته مع إسرائيل، ومحاربة نفوذ الخصوم الاستراتيجيين على الساحة الأفريقية بصورة عامة، والسودان بصورة خاصة، وعلى رأسهم روسيا والصين. فالولايات المتحدة تترقّب بقلق بالغ تطوّر التبادل التجاري بين

> **لم يَعد خافياً حجم الصراع الدولي ورهانات القوى الخارجية على خطّ الصراع في السودان**

بلدان القارّة الأفريقية والصين خلال السنوات الأخيرة، حيث بلغ 184 مليار دولار عام 2017، في مقابل نحو 65 مليار دولار بينها وبين الولايات المتحدة في العام نفسه. كذلك، يُحضر الخوف من النفوذ الروسي، من منطلق مغاير، بطغى عليه الجانبان الاستراتيجي والأمني، على ضوء تطلّع الروس إلى تأسيس قاعدة عسكرية على شواطئ السودان المطلّة على البحر الأحمر. لعلّ هذه الاعتبارات تفسّر موقف إدارة بايدن بعد انقلاب البرهان، حين بادرت إلى تعليق مساعدات اقتصادية كانت مقرَّرة للسودان بقيمة 700 مليون دولار، وسحب دعمها لخطّة إعادة هيكلة الدين العام لهذا البلد وتخفيف حجم الديون المترتّبة عليه لحساب عدد من الدائنين، بما في ذلك الولايات المتحدة ودول غربية وعربية، لحساب إطلاق برنامج ائتماني لدعم الخرطوم بالتعاون مع «صندوق النقد الدولي». في المقابل، لم تصل إجراءات واشنطن «الزجرية» بحقّ الانقلابيين، إلى حدّ فرض عقوبات مباشرة عليهم.

ما سبق يدعمه حديث تقارير غربية عن انقسام في أروقة إدارة بايدن، بين وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية من جهة، ووزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي من جهة أخرى. ذلك أن الفريق الأول، وعلى رأسه قائد القيادة الأميركية في أفريقيا (أفريكوم)، الجنرال مايكل لانغلي، يميل إلى النظر إلى السودان من وجهة محصورة بالصراع مع الصين وروسيا، فيما يؤيّد الفريق الثاني، مثل وزير الخارجية أنتوني بلينكن، ومساعدته للشؤون الأفريقية مولي في، قيام حكومة مدنية تضع في صدارة أولويّاتها تنويج مسار «العملية الانتقالية» عبر الدفع قدماً نحو التطبيع مع إسرائيل على نحو أبعد ممّا ذهب إليه البرهان حتى الساعة. وعلى خلفية ذلك الانقسام، يتحدّث بعض المراقبين الغربيين عن ارتباك يعتري أداء الإدارة الأميركية في ما يتّصل بشؤون القارة الأفريقية بصورة عامة، والسودان بصورة خاصة، في إشارة إلى غياب مقاربة أميركية واضحة للملفّات القارة. وفي هذا السياق، يعيب موقع «أفريكان إنتليجانس» على مساعدة وزير الخارجية للشؤون الأفريقية، مولي في، افتقارها إلى الخبرة الدبلوماسية اللازمة لإدارة ملفّات بحجم تعقيد الملفّ السوداني.

ويكشف الموقع أن أعضاء الفريق المعني بالشؤون الأفريقية داخل وزارة الخارجية الأميركية، ليسوا جميعهم على قدر عالٍ من التخصّص في شؤون القارّة السمراء، مشيراً إلى أنّ تعيين مولي في، التي شغلت منصب سفيرة واشنطن في جنوب السودان بين عامَي 2015 و2017، في منصبها الرفيع ضمن الدائرة المقرّبة من بلينكن، فاجأ الأوساط الأكاديمية والدبلوماسية في واشنطن، ولا سيما أنه لم يحظ بإجماع من جانب الخبراء الأميركيين المخضرمين في الشؤون الأفريقية، بالنظر إلى أن مولي في تولّت معظم مسؤولياتها السابقة في الأقسام المتخصّصة بمنطقة الشرق الأوسط، على غرار شغلها منصب مديرة لشؤون العراق في مجلس الأمن القومي خلال عهد الرئيس الأميركي الأسبق، باراك أوباما، بين عامَي 2009 و2011. ويلفت إلى أن في، وهي أحد مستشاري بايدن للشؤون الأمنية الأفريقية مولي في، قيام حكومة خبرة محدودة في الشأن الأفريقي، مقارنة باسماء أخرى لامعة جرى التداول بها في بداية عهد الإدارة الأميركية الحالية من أمثال سوزان بيج، وهي أول سفيرة لواشنطن في جنوب السودان (2011-2014). وعلى العموم، يُنظر إلى قسم الشؤون الأفريقية على أنه الأضعف والأقلّ كفاءة في وزارة الخارجية الأميركية، وفق «أفريكان إنتليجانس».

وفي إطار تقييم السياسة الأميركية تجاه السودان، والتي تكتفي بالتأييد اللفظي لمسار «العملية الانتقالية»، بدعم أممي، تقول كبيرة المحلّلين في مؤسّسة «راند» للدراسات، جاكلين بيرنز، إن القوى الدولية والإقليمية الفاعلة في هذا البلد «يمكن أن تؤدي دوراً مفيداً للغاية في إقناع الطرفين المتحاربَين بوقف القتال». وتضيف بيرنز، التي شاركت عن كثب في رسم السياسة الأميركية في السودان خلال فترة عملها كمستشارة استراتيجية في وزارة الخارجية الأميركية، في إفريقيا، كجزء من المعركة على زعامة العالم، ويبدو أن «لعبة التذاكي» ضمن إطار تحسين الشروط لا تقتصر على طرف واحد، إذ إن كلاً من البرهان وحميدتي يسعى خلف شروطه في معادلة العلاقة مع واشنطن. وإذا كانت الأخيرة تفعل فعلها في السودان، وهي تنشد حسْم مزاحمة بكين لها على رأس النظام الدولي، فإن مجريات صراع الجنرالين على الأرض هناك تبحث عن عرّاب دولي ينتدب أحدهما على رأس هرم القيادة في البلاد. فمن جهته، يلعب البرهان لعبة مكشوفة، ذلك أن جلّ ما يريده من واشنطن، مستفيداً من عامل قيادته للمؤسّسة العسكرية، هو أن يقايض ملفّ التطبيع مع تل أبيب، بدعم أميركي مطلق لتمكينه داخلياً من إعادة بعث النظام السابق ضمن مواصفات سياسية ترضاها الولايات المتحدة، وتحصيل حصانة سيادية ضدّ انتهاكات المؤسّسة العسكرية، سواء خلال فترة تولّيه قيادة الجيش إبّان حكم البشير، أو بعده، الأمر الذي لا يلقى تأييداً واسعاً في الكونغرس الأميركي. وما تأجيل البرهان محاكمة الرئيس السابق عمر البشير، وتذرّعه بضرورة الحصول على موافقة برلمان جديد منتخَب قبل توقيع اتفاق تطبيع نهائي مع إسرائيل، إلا دليل على مناورة يقوم

> **ترغب إدارة بايدن في القفز فوق إرث ترامب، في اتّجاه إعادة صياغة علاقتها مع السودان**

بها في هذا الاتجاه. أمّا حميدتي، المتّهم بارتكاب جرائم حرب في دارفور، فهو يحاول («تقريش» الكباش الروسي - الأميركي لمصلحته، حيث لا يتورّع عن تأييد خطط موسكو لإقامة قاعدة عسكرية على سواحل بلاده تارةً، بينما يعمد إلى مغازلة الأميركيين تارة أخرى، وذلك من خلال تصريحات يعلن فيها دعمه «العملية الانتقالية» في بلاده، وتجد من يؤيّدها - بالمناسبة - في أوساط نخبة السياسة والإعلام في واشنطن، ويهلّل لها.

أمّا عن الأبعاد الجيوسياسية لصراع البرهان - حميدتي، فلم يَعد خافياً حجم رهانات القوى الخارجية الكامن خلفه، إذ على مدى الأسابيع القليلة كان الإعلام الغربي والعالمي يشيع نذر الحرب المرتقبة بين جنرالات السودان، على وقْع زيارات دبلوماسية وأمنية رفيعة المستوى ومكثّفة تقاطعت خطوطها بين الخرطوم، وواشنطن، وصولاً إلى تل أبيب وموسكو. ففي شهر شباط الماضي، حطّ وزير الخارجية الروسي، سيرغي لافروف، رحاله في الخرطوم، بعد أيام من زيارة قام بها وزير الخارجية الإسرائيلي، إيلي كوهين، إلى العاصمة السودانية. وقبل ذلك، كان رئيس الاستخبارات العسكرية السوداني، أحمد صبير، يجري لقاءات رفيعة المستوى مع مسؤولين أمنيين في الولايات المتحدة. وبحسب مراقبين غربيين، يشير تسلسل الأحداث المشار إليه، إلى حدوث تغيّر في الموقف الأميركي تجاه المسألة السودانية. ويرى الباحث المتخصّص في الشأن الأفريقي، أنطوان رولاند، أن ملفّ تكريس الحربات السياسية لم يَعد مدرجاً على أجندة الولايات المتحدة، معتبراً أن الأولوية الملحّة لإدارة بايدن باتت تتمحور حول استعادة الاستقرار (الأمني والسياسي) في أقرب وقت ممكن، ومواجهة نفوذ موسكو المتنامي في أفريقيا، حتى لو كان ذلك يعني إضفاء الشرعية على سلطة البرهان. وتكشف مصادر غربية مطلعة على كواليس لقاءات المسؤول السوداني في العاصمة الأميركية، أن الطبق الرئيسي للزيارة تمثّل في علاقات حميدتي بشركة «فاغنر» الروسية، مضيفة إن إدارة بايدن تأمل استمالة البرهان بهدف إحداث تغيير جذري في ميزان القوى الداخلي لمصلحته.

فلسطين

«الجرح في الكفّ»: وصْفة السلطة لتقويض «جنين»

جنين ـ **الأخبار**

لا يتوقّف التحدّي الوجودي الذي يحيط بكتيبة جنين، عند عمليات الاقتحام والاغتيال المركّزة، والمتواصلة بشكل أسبوعي منذ نحو 20 شهراً، بل يتعدّاها إلى محاولة تقويض الخلايا المقاومة الناشئة من الداخل. ذلك على الأقلّ ما يوحي به اعتقال القيادي المطارَد في الكتيبة، طلال الحصري، منتصف نيسان الجاري، على يد جهاز الأمن الوقائي التابع للسلطة الفلسطينية، وما رافقه من هجوم للأهالي والمقاومين على مبنى القوات الأمنية التابعة للسلطة في المحافظة، والمعروف بـ«القاطعة»، أفضى إلى إطلاق سراح الحصري خلال ساعات. ويأتي العزف على هذا الوتر، بعدما فشلت عملية «كاسر الأمواج» التي بدأها جيش الاحتلال في آذار من العام الماضي، ووجّه فيها ضربات أمنية جراحية تمثّلت في اعتقال واغتيال العشرات من مقاومي «سرايا القدس» و«كتائب شهداء الأقصى»، في تحقيق فارق جوهري يقضي على الحالة بشكل ناجز.

بالعودة إلى ما حدث ليلة الـ16 من نيسان الجاري، هاجمت قوة مسلّحة من «الوقائي»، القيادي الحصري الذي يحظى بشعبية كبيرة في المخيم، عابرة للتقسيمات الحزبية؛ فهو شقيق الشهيد عبد الله، أحد مؤسّسي «الكتيبة»، والذي تحسبه عائلة الزبيدي العريقة واحداً من أبنائها، كونه وقف في وجه الأجهزة الأمنية في مطلع العام الماضي، حين اعتدت قوة أمنية بالضرب والإهانة على محمد، نجل قائد كتائب «شهداء الأقصى»، زكريا، وشاهد المخيّم بأسره يومها طلال وهو يُجرّ من الأرض، وفق تعبير مصدر محلّي، ويطلق النار على مقرّات الأجهزة الأمنية، رفضاً للتعدّي على حرمة أبناء الأسرى. وفور اعتقال الحصري، انطلقت مسيرات شعبية عفوية في المخيم، وتوجّهت إلى مقرّ «المقاطعة» الذي هاجمه بالتزامن بعض المسلّحين، وأطلقوا النار والقنابل الصوتية عليه. ودفعت ردّة الفعل هذه، الأجهزة الأمنية، إلى إطلاق سراح طلال سريعاً، غير أن الحدث لم ينتهِ عندئذٍ؛ إذ نظّمت تلك الأجهزة وحركة «فتح»، في اليوم التالي، مسيرة كبيرة، حاولت من خلالها صناعة موقف شعبي و«فتحاوي» مقابل لموقف الشارع، فيما بدا لافتاً في المشهد توسّط مسؤول إقليم «فتح» في جنين، عطا أبو رميلة، صفوف المتظاهرين، الذين هتفوا بـ«بطولة الوقائي والأجهزة الأمنية»، ودعوا إلى «الضرب بيد من حديد ضدّ المتسبّبين بالفوضى في جنين»، و«كتائب الأقصى».

> **ستحاول الأجهزة الأمنية استحداث المزيد من الإشكاليات الداخلية في جنين**

ويصف مصدر في «كتيبة جنين» ما جرى ليلتها بأنه محاولة علنية لـ«شقّ صفّ الشارع الذي يابع المقاومة منذ عملية نفق الحرية، لا سيما وأن الحالة المقاومة ما كان لها أن تنضج، لولا التناغم الكبير بين «فتح» و«الجهاد» في المخيم». ويضيف المصدر، في حديثه إلى «الأخبار»، أن «الأجهزة الأمنية حاولت تكرار سيناريو نابلس، القائم على ملاحقة المقاومين واعتقالهم، أو اقتناع بعضهم بتسليم السلاح مقابل العمل في الأجهزة الأمنية، وتحصيل عفو من الاحتلال، ولّما فشلت، ولم تجد مقاوماً واحداً يقبل تسليم نفسه وسلاحه، بدأت العمل على زرع الفتنة وعزل الشباب الفتحاوي المقاوم عن إخوانه في الجهاد، مستغلّةً غياب واعتقال القيادات المجتمعية التي تحظى باحترام الجميع، من مِثل الشيخ بسام السعدي وخضر عدنان، وتحييد الأب الكبير أبو رعد خازم بعد مرضه». ويلفت إلى أن «الأخ عطا أبو رمايلة كان أحد القيادات الحاضنة للمقاومة، على رغم أنه محسوب على خطّ فتح الرسمي الذي يدين بالولاء للسلطة والرئيس محمود عباس، وظهوره في المسيرة المشؤومة كان محاولة لاستمالته لمواجهة الكتيبة ومن خلفها عائلة الزبيدي وإخوان ورفاق الشهيد القائد عبد الله أبو التين».

وإذ يبدو أن الأجهزة الأمنية وصلت إلى قناعة بأن إجهاض حالة المقاومة في الضفة الغربية قاطبة، لن يتحقّق سوى بالقضاء على المقاومة في جنين أوّلاً، وهو ما خلصت إليه قمّتا العقبة وشرم الشيخ الأمنيتان، فـ«هي ستحاول استحداث المزيد من الإشكاليات الداخلية في جنين، مستغلّةً اندفاع شباب المقاومة وجذريتهم في التعاطي معها، بهدف اختراق المخيّم، وإشعال الفتنة بين "فتح" و"الجهاد"، بما يسمح بالمزيد من حالات استخدام سلاح المقاومة في وجه القوّات الأمنية، ويوفّر بالتالي ذريعة لتنفيذ عملية أمنية كبيرة تحظى بدعم جزء من المكوّن الشعبي في محافظة جنين، ولا تظهر فيها السلطة وكأنها تنفّذ أهدافاً إسرائيلية». وعليه، تشدّد مصادر أهلية في جنين على أنه من المهمّ «تفويت أيّ فرصة لإثارة النعرات الداخلية، والمحافظة على ما هو قائم من حالة تآخٍ بين مكوّنات الشارع المقاوم وحاضنته الشعبية، وذلك من خلال الابتعاد عن خطاب التخوين حتى وإن كان "الجرح في الكفّ"».

دعوة لحضور اجتماع لجمعية المالكين - الاجتماع الثاني -
في العقار رقم ٨٠٨/ ذوق مكايل
(مجمع السوليمار ١ - الكسليك) لانتخاب لجنة إدارة للجمعية

يدعو المدير المؤقت المعيّن من محكمة الاستئناف المدنية في المتن الناظرة في القضايا المستعجلة في الملف رقم ٢٠٢١/١١٩ مالكي الأقسام المختلفة في العقار رقم ٨٠٨/ من منطقة ذوق مكايل العقارية المعروف بمجمع السوليمار ١ لحضور اجتماع لجمعية المالكين يوم الخميس الواقع في ٢٠٢٣/٥/١١ عند الساعة ١٢:٠٠ ظهراً وذلك في مُجمع السوليمار الكسليك، وعلى جدول أعمال الاجتماع الموضوع التالي:
- انتخاب سبعة أعضاء للجنة الإدارة عملاً بأحكام البند «أولاً» من الفصل الرابع من النظام الخاص لمالكي الحقوق المُختلفة.
على أن يتبع هذا الاجتماع التمام لجنة الإدارة المُنتخبة مع لجنة إدارة العقار رقم ٧٩٦/ ذوق مكايل لتشكلا معاً اللجنة الإدارية المُشتركة لمجمع السوليمار وتنتخب هذه الأخيرة بالأكثرية رئيساً لها.
وذكّر المدير أن الاجتماع هو الاجتماع الثاني والتالي حسب النظام الخاص فإن الاجتماع سيكون قانونياً مِن حضر، وعليه تُحدد مدة الاقتراع بساعتين، من الساعة ١٢:٠٠ وحتى الساعة ١٤:٠٠، وتُمدد بصورة استثنائية في حينه عند الحاجة على ضوء مدى كثافة المقترعين في مكان الاجتماع.
المدير المؤقت
الخبير المهندس وئام الخطيب

دعوة لحضور اجتماع لجمعية المالكين - الاجتماع الثاني -
في العقار رقم ٧٩٦/ ذوق مكايل
(مجمع السوليمار ٢ - الكسليك) لانتخاب لجنة إدارة للجمعية

يدعو المدير المؤقت المعيّن من محكمة الاستئناف المدنية في المتن الناظرة في القضايا المستعجلة في الملف رقم ٢٠٢١/١١٩ مالكي الأقسام المختلفة في العقار رقم ٧٩٦/ من منطقة ذوق مكايل العقارية المعروف بمجمع السوليمار ٢ لحضور اجتماع لجمعية المالكين يوم الخميس الواقع في ٢٠٢٣/٥/١١ عند الساعة ١٢:٠٠ ظهراً وذلك في مُجمع السوليمار الكسليك، وعلى جدول أعمال الاجتماع الموضوع التالي:
- انتخاب خمسة أعضاء للجنة الإدارة عملاً بأحكام البند «أولاً» من الفصل الخامس من النظام الخاص لمالكي الحقوق المختلفة، ويشترط أن يكون أحد أعضاء لجنة الإدارة حكماً مالكاً لقسم في المركز التجاري.
على أن يتبع هذا الاجتماع التمام لجنة الإدارة المُنتخبة مع لجنة إدارة العقار رقم ٨٠٨/ ذوق مكايل لتشكلا معاً اللجنة الإدارية المُشتركة لمجمع السوليمار وتنتخب هذه الأخيرة بالأكثرية رئيساً لها.
وذكّر المدير أن هذا الاجتماع هو الاجتماع الثاني والتالي حسب النظام الخاص فإن الاجتماع سيكون قانونياً مِن حضر، وعليه تُحدد مدة الاقتراع بساعتين، من الساعة ١٢:٠٠ وحتى الساعة ١٤:٠٠، وتُمدد بصورة استثنائية في حينه عند الحاجة على ضوء مدى كثافة المقترعين في مكان الاجتماع.
المدير المؤقت
الخبير المهندس وئام الخطيب

قضية

«النفط مقابل الغذاء» بنسخته السورية: المقايضة خياراً مرحلياً

تراجُع إيراداتها من القطع الأجنبي، وسيطرة الأميركيين على حقول نفطها وقمحها، وفرضهم عقوبات واسعة عليها... كلّها عوامل تدفع دمشق، اليوم، إلى دراسة إمكانية اعتماد نظام المقايضة في بعض مبادلاتها التجارية الخارجية، بحيث تتمكّن من مقايضة فائض سلعها الزراعية وثرواتها الطبيعية بجزء من احتياجاتها الضرورية

زياد غصن

مع ارتفاع حاجة البلاد من المستوردات الضرورية، وعدم توفّر كميّات كافية من القطع الأجنبي لتغطية قيمة تلك المستوردات، تدرس سوريا إمكانية إبرام اتّفاقيات تبادل تجاري مع بعض الدول، تقوم على أساس المقايضة، ولا سيما بعدما سُجّل نجاح في تنفيذ بعض الخطوات في هذا الإطار، كما في مقايضة كمّيات من الأسمدة اللازمة للأغراض الزراعية بمنتجات زراعية سورية أو كمّيات من الفوسفات، فضلاً عن توجّه دول أخرى للعمل بذلك النظام. ويعيد التفكير بهذه الاستراتيجية، إلى الأذهان، القرار الأممي الصادر في تسعينيات القرن الماضي، والذي سمح للعراق المحاصَر آنذاك بتصدير كمّيات محدّدة من النفط مقابل حصوله على الغذاء لشعبه، وهو ما تحاول سوريا أن تفعله اليوم، ولكن بشكل معاكس وأكثر شمولية.

فهي من جهة، سوف تُصدّر الغذاء مقابل حصولها على بعض السلع الضرورية غير المنتجة محلياً، والتي تعرقل تأثيرات العقوبات الغربية وصولها إلى البلاد، فيما لا يُستبعد أن يكون النفط ومشتقّاته جزءاً من السلع المراد المقايضة عليها. ومن جهة ثانية، فإن المعادلة السورية تقتضي أحياناً تصدير الغذاء للحصول على الغذاء أيضاً.

المستوردات ثابتة والحاجة تزداد

لجأت دمشق، منذ عدّة سنوات، وفي محاولة منها لضبط سعر صرف عملتها، إلى تطبيق مجموعة إجراءات، كان من بينها اعتماد سياسة لترشيد المستوردات، قوامها حصر هذه الأخيرة بالسلع والمواد الأساسية كالغذاء، والدواء، والمواد الأوّلية اللازمة للصناعة والزراعة، وكذلك تشجيع الإنتاج المحلّي لبعض السلع المستوردة بغية الاستغناء عن استيرادها. وقد أسهمت الإجراءات المُشار إليها، بالفعل، في ضبط قيمة المستوردات السورية لتستقرّ خلال العامَين الأخيرَين عند حوالي 4,2 مليارات يورو، بعدما كانت في عام 2018 قد تجاوزت 6,3 مليارات يورو. لكن في المقابل، ثمّة من يُحمّل تلك السياسة مسؤولية حدوث نقص في كمّيات السلع المطروحة للاستهلاك، الأمر الذي أدّى، بحسب هذا الرأي، إلى توسّع دائرة الاحتكار والمضاربات والغلاء، والأخطر تشجيع عمليات التهريب. لكن عدم توفّر بيانات دقيقة لكمّيات الاستهلاك الفعلية من معظم السلع، المنتَجة محلياً أو المستوردة، وما هو مطلوب لإحداث استقرار وتوازن سعري، يجعل من الصعب تبنّي تقييم نهائي لمدى صوابية السياسة التي اعتمدتها دمشق والانتقادات المُوجّهة إليها.

في ملفّ المشتقّات النفطية، تبدو الأمور أكثر وضوحاً؛ إذ إن الكمّيات المتاحة للاستهلاك المحلّي أقلّ بكثير من الاحتياجات، بدليل عدم كفاية مخصّصات جميع القطاعات، واضطرار هذه الأخيرة إلى اللجوء إلى السوق السوداء لسدّ جزء من فجوة استهلاكها، إضافة إلى أن البيانات الحكومية تتحدّث صراحة عن وجود فجوة في هذا المجال منذ خروج حقول النفط عن سيطرة الحكومة. فمثلاً، تُقدّر حاجة البلاد بما لا يقلّ عن 7,5 ملايين ليتر مازوت يومياً، فيما المتاح فعلياً لا يتجاوز في أحسن الأحوال 5,5 ملايين ليتر، والأمر نفسه ينسحب على البنزين والغاز المنزلي وغيرهما. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الفجوة المذكورة لا تفتأ تتعمّق مع مرور الوقت، متأثّرة بارتفاع بعض مستويات الطلب المحلّي، وخاصة في ظلّ محاولات إنعاش القطاع الإنتاجي، وإعادة إصلاح وتأهيل بعض البنى التحتية والمرافق الخدمية. وعلى سبيل المثال هنا، فإن إعادة استثمار بعض المساحات الزراعية تعني ارتفاع احتياجات القطاع الزراعي من المازوت والأسمدة وغيرهما من مستلزمات الزراعة. كما أن محاولة تشجيع الصناعيين والمنتجين على إقامة صناعات بديلة للمستوردات، تعني الحاجة إلى مزيد من المواد الأولية وقطع التبديل وحوامل الطاقة.

> **لجأت دمشق، منذ عدّة سنوات، وفي محاولة منها لضبط سعر صرف عملتها، إلى تطبيق مجموعة إجراءات**

وعليه، فإن سعي الحكومة لضبط مستوردات البلاد عند رقم معيّن لا يأخذ في الاعتبار تقلّبات احتياجات السوق المحلية، من شأنه أن يسهم في تقييد العملية الإنتاجية، وإحداث خلل في جانب العرض يؤدّي بدوره إلى مزيد من الاحتكار والغلاء. ومن هنا، كان التفكير الحكومي باللجوء إلى أسلوب المقايضة، للهروب من عقبة عدم توفّر القطع اللازم لتوسيع دائرة المستوردات.

النسخة السورية المعدّلة

تأخذ النسخة السورية من اتّفاق العراق المسمّى «النفط مقابل الغذاء»، في الاعتبار عاملَين أساسيَّيْن: الأوّل، أن الدول التي يمكن أن تشكّل طرفاً ناجحاً في عملية المقايضة، ينبغي أن تكون محتاجةً إلى ما يتوفّر لدى سوريا من سلع فائضة أو متاحة للتصدير، وفي الوقت نفسه قادرة على توفير ما يحتاجإليه السوريون في المقابل من سلع ومواد؛ وفي هذا الإطار، تركّز دمشق اهتمامها حالياً على بعض الدول العربية والصديقة. أمّا العامل الثاني، فيتعلّق بالسلع المتوفّرة لدى سوريا، والتي يمكنها أن تقايض عليها، وفي مقدّمتها المحاصيل الزراعية التي تشكّل ورقة هامّة بيد دمشق في أيّ مفاوضات مستقبلية بالخصوص. لكن هل سيكون ذلك على حساب السوق والمستهلك المحلّيَّيْن؟ أم سيجري تنظيم إعادة انتشار للصادرات الزراعية الحالية بحيث تتوجّه نحو الدول المراد التعاون معها؟

تتّفق غالبية الآراء على أن الخيار الثاني هو المرشّح للتنفيذ، وخاصة أن إجمالي الكميات المصدّرة من المنتَجات الزراعية (خُضر وفواكه) - باستثناء المواد الغذائية المصنّعة ومستلزمات الإنتاج من مثل الشتول والبذور والمبيدات والأسمدة الحيوية والعضوية -، وصل حجمها العام الماضي إلى حوالي 400 ألف طن. وبحسب ما يفيد به غياث شماع، رئيس مجموعة «دلتا» للاقتصاد والأعمال، فإن «المنتَجات الزراعية السورية تصل إلى أكثر من 20 دولة في العالم، وتحقّق نسبة احتراق وتنافسية جيدة في أسواق دول الخليج، الأردن، العراق، مصر، وغيرها، حيث تمثّل ما بين 80 و90% من إجمالي الصادرات الزراعية إلى الدول المذكورة، في حين تشكّل نسبتها إلى الدول الأخرى من مثل روسيا، إيران، الصين، قبرص، فنزويلا، رومانيا، حوالي 10%». ويضيف شماع، في تصريح إلى «الأخبار»، أن «الكمّيات المصدّرة من الخضر تشكّل من إجمالي الصادرات الزراعية حوالي 58%. ومن أهمّها البطاطا، البندورة، الفليفلة، الباذنجان، وغيرها، في حين تمثّل الكمّيات المصدّرة من الفواكه حوالي 42%، ومن أهمّها الحمضيات، التفاح، والمشمش وغيرها. وتُضاف إلى تلك القائمة، الكميات المصدّرة من المواد الغذائية التي تعتمد على المواد الأوّلية الزراعية كدبس البندورة، الذي صُدّر منه حوالي 2254 طنّاً في العام الماضي، إلى جانب حوالي 900 طنّ من الفواكه المجفّفة، وحوالي 1500 طنّ من النباتات العطرية والطبّية المجفّفة».

لكنّ النتائج تبقى أسيرة الإجراءات الحكومية، ومدى قدرتها على تحقيق موازنة عادلة بين ضمان حصول الأسواق المحلّية على احتياجاتها من السلع الزراعية، وبين التعامل مع الفائض واستثماره تصديرياً بما يؤمّن للبلاد سدّ احتياجاتها من سلع أخرى. وفي هذا السياق، لا يستبعد محمد كشتو، رئيس «اتحاد غرف الزراعة»، إمكانية حدوث بعض الإرباك بدايةً، لكنه يجزم أن السوق سوف يعاود موازنة نفسه من جديد، وبما يخدم المستهلكين والمزارعين معاً. ويضيف كشتو، في تصريح إلى «الأخبار»، أنه «مع فتح باب التصدير لجميع السلع الزراعية، فهذا الإجراء من شأنه إنعاش إنتاجيّة القطاع الزراعي، بما يلبّي احتياجات جميع المستهلكين المحلّيين والخارجيين، وخصوصاً أن الخسائر التي يتعرّض لها المزارعون سنوياً تخرج بعضهم من السوق وتدفع آخرين إلى مزاولة مهن أخرى».

> **ياتي تحريك ملفّ المساعدات في وقت يشارف فيه القرار الاممي الذي وافقت موسكو على تمديده بالخصوص على نهايته**

تَقدّم «أستانا» يغري بيدرسون: فَلْنستثمر الانفتاح

في اعقاب فشل المسار الاممي لحلّ الازمة السورية (اللجنة الدستورية) في تحقيق ايّ تقدّم ملموس قبل تجميده. وبالتوازي مع حركة الانفتاح العربية على دمشق، ومحاولات موسكو وطهران تحريك المياه الراكدة بين سوريا وتركيا عبر مسار «استانا»، يبدو ان المبعوث الاممي الى سوريا غير بيدرسون، وجد اخيراً طريقة لإحياء مبادرته «خطوة مقابل خطوة»، والتي تعرّضت للإجهاض قبل إطلاقها إذ يحاول بيدرسون استثمار تلك التطوّرات في تثبيت دور اممي في الحلّ السوري. في وقت عاد فيه ملفّ «المساعدات العابرة للحدود» إلى الواجهة مرّة اخرى، مع تلويح روسيا باعادة تقييم الموقف بخصوصه. واتّهام الدول الغربية باستثمار القرار الاممي بشانه بشكل سياسي

علاء حلبي

على الرغم من تحوّل جلسات مجلس الأمن الخاصة بسوريا إلى إجراء روتيني تقوم من خلاله كلّ دولة بتكرار مواقفها السابقة، بينما تقدّم الأمم المتحدة من وقت إلى آخر إحصاءات الدمار المستمرّ في البنية السورية جرّاء الحرب، جاءت الجلسة التي ترأستها روسيا أوّل من أمس ببعض المستجدّات، وذلك على وقع حركة الانفتاح العربية على دمشق والتي انضمّت إليها الرياض أخيراً، والمفاوضات السورية - التركية برعاية روسية - إيرانية. وعبّر المبعوث الأممي إلى سوريا، غير بيدرسون، الذي نشّط خلال الأسبوعين الماضيَين عبر إجراء سلسلة لقاءات بهدف تحريك المسار الأممي، عن تفاؤله بتطوّرات من شأنها أن تحلحل المشهد السوري المعقّد، معتبراً، في كلمته خلال الجلسة، أن «سوريا مقبلة على نقطة فارقة ومهمّة في ظلّ الاهتمام المتزايد من دول المنطقة»، مضيفاً أن تواصل مسار «استانا»، والحراك الدبلوماسي القائم حالياً، من شأنهما أن يساهما في الدفع نحو الحلّ الأممي وفق القرار 2254. وعلى عكس التوجّه الأميركي المعلَن برفض التطبيع مع سوريا، رأى المبعوث الأممي أن هذا التطبيع سيوسّع دائرة مشاركة القوى الفاعلة، مشدّداً على أن الأوضاع في سوريا «لا يمكن حلّها من قبل طرف واحد»، معيداً التذكير بمبادرته «خطوة مقابل خطوة»، والتي تقضي بفكّ عزلة دمشق مقابل خطوات تتّخذها الأخيرة على الأرض، وهي مبادرة لم تلقَ أيّ نجاح في ظلّ حالة عدم اليقين إزاءها، على رغم أنها حظيت، وقت إعلانها، بمباركة أميركية كونها تعني، بشكل أو آخر، «شرعنة الوجود الأميركي» غير الشرعي على الأراضي السورية.

وقدم بيدرسون، الذي يبدو أنه يحاول إعادة الحياة إلى الدور الأممي المجمّد في الملفّ السوري، إلى مجلس الأمن، بعد نحو خمسة أيام على حضوره اجتماعاً غير رسمي مع ممثّلين عن دول الاتحاد الأوروبي في العاصمة اليونانية أثينا، بدعوة من اليونان التي قطعت، هي الأخرى، شوطاً في إعادة ترتيب علاقتها بسوريا، عبر تعيين السفيرة السابقة في دمشق، تاسيا اثاناسيو، مبعوثةً خاصة للشأن السوري تنشط من بيروت. وكان المسؤول الأممي قد استمع، خلال الاجتماع، إلى طروحات عديدة حول تغييرات يجب القيام بها إزاء الأوضاع في سوريا، وهي طروحات تتقاطع أيضاً مع المبادرة التي يقودها الأردن لإعادة فتح الأبواب المغلَقة بين دمشق والعواصم الغربية، ما يمكن أن يمثّل فرصة، بحسب بيدرسون، لإعادة تنشيط مسار «اللجنة الدستورية»، وإحياء «خطوة مقابل خطوة».

بدورها، أعادت روسيا، التي تترأّس مجلس الأمن هذا الشهر، فتح ملفّ المساعدات الأممية، والتي كانت وافقت سوريا، بعد وقوع زلزال السادس من شباط، على فتح معبرَين إضافيَّيْن من أجل إدخالها عبر تركيا لمدّة ثلاثة أشهر، إلى جانب معبر باب الهوى. وإذ يأتي تحريك الملفّ اليوم في وقت يشارف فيه القرار الأممي، الذي كانت وافقت موسكو على تمديده لستّة أشهر أخرى مطلع العام الحالي، على نهايته (تنتهي مفاعيله في شهر تموز المقبل)، فقد عبّر المندوب الروسي في الأمم المتحدة، فاسيلي نيبينزيا، عن رغبة بلاده في إعادة النظر في الآلية القائمة، في ظلّ عدم وفاء الدول الغربية بتعهّداتها بموجبها، وعلى رأسها إدخال المساعدات عبر الخطوط (دمشق) وعبر الحدود في آن، بالإضافة إلى تقديم دفعة لعمليات التعافي المبكر، والتي فاقم الزلزال وما رافقه من أزمات معيشية وإنسانية من ضرورة تسريع وتيرتها.

> **على عكس التوجّه الاميركي، راى بيدرسون ان هذا التطبيع سيوسّع دائرة مشاركة القوى الفاعلة في حلّ الازمة (أ ف ب)**

وأشار نيبينزيا، في كلمته، إلى أن «المعابر المخصّصة لإدخال المساعدات (عبر الحدود التركية - السورية) تُستخدم لأغراض أخرى غير متعلّقة بالوضع الإنساني (...) الوضع يبدو وكأن التصريحات التي منحتها دمشق لاستخدام نقطتَي عبور إضافيتَين خلال 3 أشهر، قلّصت إلى الصفر رغبة الأمم المتحدة في رفع القيود عن نقل المساعدات عبر خطوط التماس»، محذّراً من أنه «إذا استمرّ زملاؤنا الغربيون في مجلس الأمن الدولي في التصرّف وكأنه لم يحدث شيء، وفي تجاهل إحباط تنفيذ قرار مجلس الأمن من قِبَل (الإرهابيين) الدوليين، فإننا سنخرج بالاستنتاجات المطلوبة من الوضع الراهن أثناء صياغة موقفنا بشأن تمديد آلية نقل المساعدات عبر الحدود، والمخطّط له في تموز المقبل». لافتاً إلى أن «الآلية القائمة استنفدت قدراتها منذ فترة طويلة، وتُستخدم لأغراض أخرى بعيداً عن معالجة الوضع الإنساني».

وتسعى موسكو، عبر ربطها آلية إدخال المساعدات بمطالب أخرى، إلى كسر الحدود التي رسمتها الحرب وما أفرزتها من مناطق سيطرة، بالإضافة إلى تقديم دفعة لملفّ عودة اللاجئين والنازحين عبر ترميم البنى التحتية في المناطق المدمّرة بشكل يضمن أساسيات الحياة للعائدين. وفي هذا الجانب تحديداً، تستمرّ الولايات المتحدة والدول الغربية، في المقابل، في ربط العودة بالعملية السياسية، بشكل يحوّل ذلك الملفّ إلى ورقة ضغط على طاولة المفاوضات، وينذر بمعارك دبلوماسية جديدة سيشهدها مجلس الأمن خلال الشهرَين المقبلَين، وخصوصاً مع استمرار مسار الانفتاح السوري - التركي، والذي من شأن وصوله إلى خواتيمه أن يسحب جزءاً كبيراً من المسألة الإنسانية من طاولة التفاوض السياسي.

◄ إعلانات رسمية ►

◄ مبوب ►

◄ تصفية ►

إلى دُور النشر
أسعار تصفية على مُؤلّفات لغوية مطبوعة ومعروفة، العربية للأجانب والإنكليزية للعرب، بقلم مؤلّف معروف.
هاتف: 04/930159 - 03/161130

اعلان

قرر القاضي العقاري في النبطية بناءً للقرار 2023/1 إعادة تكوين صحيفة العقار 1400 عبّا بالطريقة القضائية وتكليف الخبير لطفي عياش والمساعد القضائي زينب شكرون للكشف على العقار نهار السبت 2023/3/11 وتحديد نهار الخميس 2023/4/18 موعداً لجلسة المحاكمة ولكل ذي مصلحة أو حق بتقديم اعتراضه ضمن المُهلة الممتدة حتى تاريخ جلسة المحاكمة.
الياس عطية
رئيس القلم

تبليغ

صادر عن محكمة النبطية المدنية المنفردة / عقاري
يدعو قلم هذه المحكمة المُدعى عليهم: عباس علي عبدالله أحمد ومحمد أحمد كربلة وعلي حسين عبدالله أحمد وريان حسن أحمد وراغدة محمد نزيه البابا وغايل حسن أحمد، آخر مقام معروف لهم في عين قانا والمجهولي محل الإقامة للحضور إليه لاستلام أوراق الدعوى رقم 2023/471 المُقامة عليكم من عباس يوسف حويلي بوكالة المحامي مصطفى فرحات بمادة حق مرور، وعليكم اتخاذ محل إقامة لكم ضمن نطاق المحكمة ما لم تكونوا مُمثلين بمُحام حيث يُعد مكتبه مقاماً مُختاراً وإلا جاز إبلاغكم الأوراق وموعد الجلسة بواسطة رئيس القلم والتعليق على لوحة الإعلانات ضمن المُهلة القانونية من تاريخ النشر.
عن رئيس القلم
شريف نور الدين

◄ وفيات ►

والده سامي ملحم سماحة
والدته راغدة الياس هبر
شقيقته رولا
أعمامه عائلة المرحوم إبراهيم ملحم سماحة زوجته حياة شمعة نديم
عمّاته عائلة المرحومة سعاد أرملة المرحوم طانيوس سليم بارودي
المرحومة وداد
أخواله غسان الياس هبر زوجته ياسمين يتيم وعائلته
العقيد المتقاعد وليد الياس هبر زوجته لينا الشيخ وعائلته
الياس
خالته رندة وأولادها
وعموم عائلات سماحة، هبر، بارودي، يتيم، الشيخ، مكاوي، ديب، خطّار، غبريل، شمعة، المر، جريديني، قازان، ناصيف، بعقليني، عريضة وعموم عائلات الأشرفية، بيروت وأنسباؤهم
في الوطن والمهجر ينعون إليكم فقيدهم الغالي المأسوف على شبابه
زياد سامي ملحم سماحة
الناشط البيئي في لبنان ودول حوض البحر الأبيض المتوسط
عضو منظمة الأغذية العالمية FAO/GFCM في روما إيطاليا
مدير إقليمي سابق في منظمة IUCN
عضو في الجمعية الوطنية للغطس NISD في لبنان
المنتقل الى رحمته تعالى في إيطاليا إثر حادث أليم، متمتّعاً بأجوبته الدينية.
يحتفل بالصلاة لراحة نفسه الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثلاثاء 2 أيار 2023 في كنيسة القديس ديمتريوس للروم الأرثوذكس (مار متر)، الأشرفية ابتداءً من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر لغاية الساعة السادسة مساءً.
يحتفل بالصلاة لراحة نفسه الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثلاثاء 2 أيار 2023 في كنيسة القديس ديمتريوس للروم الأرثوذكس (مار متر)، الأشرفية ابتداءً من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر لغاية الساعة السادسة مساءً، ويوم الأربعاء 3 أيار 2023 في صالون كنيسة القديس ديمتريوس للروم الأرثوذكس (مار متر)، الأشرفية ابتداءً من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر لغاية الساعة السادسة مساءً.

استراحة

كلمات متقاطعة 4297

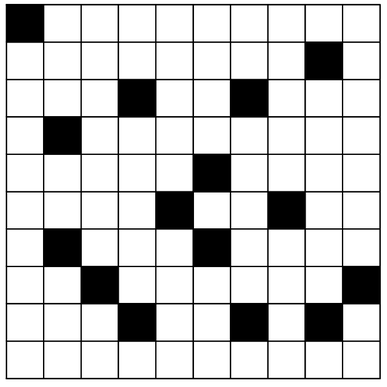

أفقيا

1- مهرجان عالمي في كرة القدم – 2- دولة في أميركا الجنوبية – 3- طرّبت ورنّمت – ضمير منفصل – إنتفاخ في الجلد – 4- رئيس لبناني راحل – 5- لعبة رياضية – ورد أبيض معطّر – 6- نعم بالأجنبية – في القميص – وقت بالأجنبية – 7- أحد تلاميذ المسيح – مدخل – 8- مدينة عراقية – للتعريف – 9- عائش – مهر في السنة الأولى من عمره – 10- قائد روسي خلال الحرب العالمية الثانية

عمودياً

1- مدينة كنعانية في سوريا – زار الأماكن المقدسة – 2- رئيس أميركي راحل – 3- رسالة – بلاد الإغتراب – 4- مشابهان – آلة هندسية – 5- نتنفّس بصعوبة – إلهام – 6- عائلة مؤسس الصليب الأحمر – صفحة بالأجنبية – 7- بحر – حديقة – 8- لقب للإمام علي بن أبي طالب – حلّ اللغز – 9- عملة إيطالية – متشابهان – تُقال على الهاتف – 10- مؤلف رواية «صخرة طانيوس»

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1- باريس – صراخ – 2- رشيد – كابول – 3- زو – مر – رخ – 4- خرير – صوفيا – 5- هوان – غل – 6- طفاع – فو – 7- لعب – صقر – نم – 8- كينيا – خم – 9- راجل – فاديم – 10- زلة – المحال

عمودياً

1- برزخ – الكرز – 2- اشوري – عيال – 3- ري – طبنجة – 4- يدمرهم – يل – 5- واصا – 6- صاعق – فل – 7- صابون – رخام – 8- رب – مدح – 9- اوريغون – يا – 10- خلخال – مخمل

sudoku 4297

7			4					9
		2		7		6		
9					5			4
	2	5			1	7	4	
	6	9		4		2	3	
			5					
6			9					7
		1		3		9		
5		4			7	3		2

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أوعمودي.

حل الشبكة 4296

7	1	5	8	3	9	2	4	6
4	8	9	6	1	2	3	7	5
2	6	3	4	7	5	9	8	1
3	4	1	9	5	7	6	2	8
8	2	7	1	4	6	5	9	3
9	5	6	2	8	3	7	1	4
6	7	8	3	2	1	4	5	9
1	3	2	5	9	4	8	6	7
5	9	4	7	6	8	1	3	2

مشاهير 4297

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

أول رئيس روسي (1931- 2007) بعد تفكك الإتحاد السوفياتي

8+5+4+7+6 = تحويل الذهب الى عملة ■ 11+10+9 = مدينة فرنسية ■ 3+1+2 = أحد الأمراض

إعداد
نعوم مسعود

حل الشبكة الماضية: **ولي الدين يكن**

البلاد

على الغلاف

«العاشقين» إلى ما بعد التحرير

مطر عدوان

من حسن حظ «العاشقين» أنها بدأت في لحظات القوة، ومن حسن حظ الجمهور أن صوتها خفت ولم ينته. بدأت الفرقة الأشهر في التاريخ الفلسطيني عام 1977، في مخيم البرمول للاجئين الفلسطينيين. كانت عائلة الهبّاش، إخوة ستة من عائلة الهبّاش، 3 شبان هم الطفل محمد الذي كان يغني ويلقي الأشعار والمواويل، وخالد وخليل، عازفان، 3 فتيات، هن فاطمة وآمنة وعائشة، مغنيات كورال، شكّلوا معاً فرقة تغني للوطن السليب. التقط الستة، موسيقار كبير اسمه حسين نازك، عرفه الناس في أكثر من مناسبة، منها برنامج الأطفال الشهير «افتح يا سمسم»، وعرفوه بالحان مسلسل «بأم عيني» ومسلسل «عز الدين القسام» من إنتاج دائرة الثقافة والفنون في منظمة التحرير الفلسطينية. كان اللقاء بين حسين نازك والإخوة الهبّاش، حين كانت دائرة الثقافة في المنظمة تعمل على إنتاج مسرحية «المؤسسة الوطنية للجنون» من تأليف الشاعر الفلسطيني الراحل سميح القاسم، وقد تكلّف الشاعر الفلسطيني الراحل أيضاً أحمد دحبور، بكتابة أغان للمسرحية، كانت من ضمنها الأغنية الشهيرة «والله لازرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر»، ليضع الألحان لها نازك. تلك العلاقة استمرت، وكانت «فرقة أغاني العاشقين» التي تحوّلت مع الوقت إلى «فرقة العاشقين»، وكان لهذه الفرقة من اسمها نصيب، فعلاقة أفرادها مع القضية كانت أشبه بالعشق، وهي كذلك حتى اليوم، على الرغم من تشتتهم، إذ لم يتوقف واحدهم عن الوفاء للقضية التي غنوا من أجلها، ومثّلوا علاقة الملايين من العرب بفلسطين، فوصول الأغنية كان أسرع بكثير من المجلات والجرائد والكتب التي كانت تصدرها منظمة التحرير وفصائلها، والأغنية بطبيعتها تلقى إقبالاً واسعاً لدى الجمهور لسهولة تلقيها، فكانت «أشهد يا عالم علينا وع بيروت» بمثابة الهوية الدالة على ما حدث في بيروت عام 1982، حين اجتاحت قوات «اللبغي والطغيان» بيروت. في هذه الأغنية وغيرها من أغاني الفرقة التي وضع كلماتها دحبور وصادق الحسيني ويوسف الحسون، وغيرهم، كانت الحكاية الفلسطينية بماضيها وحاضرها وربما مستقبلها، تقال بأصوات يعرفها الناس، ويسمعونها، ويلجؤون إلى أداء أغانيها للتعبير عن الانتماء إلى القضية الأبرز عربياً.

صحيح أن الفرقة لم يُعلن عن توقفها بشكل نهائي، على الرغم من توقفها تماماً، إلا أنها تحضر في كل المواقف الوطنية بلا منازع، إذ لم ينازعها على مكانتها احد حتى الآن، حتى مع ظهور أغان وفرق أخرى أكثر مواكبة للعصر الحديث، إلا أن «العاشقين» تشبه الضمير، وتشبه القلب الذي يتوكّا عليه الياس لينتفض ويتذكر أن الماضي المجيد، يمكن له أن يُنهض الحاضر من موته السريري، بتذكيره للناس، أن فلسطين البداية والنهاية. ومن أجل هذه الفكرة مثلاً، لم يتوقف محمد الهبّاش عن تقديم الجديد، فأسّس فرقة «جذور العاشقين» عام 1987، وتوقفت بعد حوالي ست سنوات، وساهم بإصدار البومات بعد معركة جنين، يمكن الاستماع إليها اليوم، فتحيي روحية تجعل المتلقّي يستعيد تلك الروحية التي حملت المعركة الأشهر في الانتفاضة الثانية، ومثله مثلاً حسين نازك، الذي تصدى قبل أعوام لمشروع إحياء التراث الفلسطيني، وأحمد دحبور الذي شارك في فعاليات عديدة، ألقى فيها الشعر، أو كتب مقالات تذكّر بما كان.

هذه الفرقة التي تشبه فلسطين كثيراً ببعدها العربي، كان من أعمدتها الأساسيين العديد من العرب الذين غنوا فيها وعزفوا ورقصوا، منهم العربي اللبناني حسين منذر المغني الأول في الفرقة، الذي ما إن يصدح بـ«أشهد يا عالم علينا وع بيروت» إلا وتذكرنا حركة جسده، وتفاعله مع الثورة المنطلقة من صوته، كذلك العربي السوري ميزر ماردينلي الراقص الأول في الفرقة والمصمم والمدرب على رقصاتها التي استعارت وطوّرت في الرقصات التراثية الفلسطينية، والتي أصبحت اليوم المدرسة الأولى لمعظم الفرق الفلسطينية التراثية، فقد كان من ميزات ما فعله ماردينلي، الحفاظ على الأصالة مع إدخال السحر في الأداء على المسرح، حتى باللباس الذي تنقّل بين العسكري، أسوة بالفدائيين، وبين الزي التراثي الفلسطيني للنساء والرجال، كما فعلت كل الأغاني، بأن حافظت على الأصالة، واحترام التراث، وتطويره من دون العبث فيه بمسميات غريبة لا تشبهه ولا تشبه شعب فلسطين وشعوب بلاد الشام.

لم تعد فرقة «العاشقين» موجودة، لكنّ الشكر لها، كلّ الشكر، فقد قدّمت لنا ما يمكن أن نقدّمه للأجيال القادمة، لا للاستماع والاستمتاع فقط، بل لنفهَم الأجيال اللاحقة قصة فلسطين على الأقل، كي تبقى محفوظة في الصدور. فالشكر والتحية إلى أعضاء «العاشقين» الذين حفظوا فلسطين، وحفّظونا حكايتها.

> «العاشقين» تشبه الضمير، وتشبه القلب الذي يتوكّا عليه الياس لينتفض ويتذكر أن الماضي المجيد، يمكن له أن يُنهض الحاضر من موته السريري، بتذكيره للناس، أن فلسطين البداية والنهاية

محمد هباش الدور الرسالي والأداء الملحمي

موسى جرادات

هو العاشق للوطن، متعدد المواهب، من الراوي إلى المؤدي والموسيقي، صاحب الصوت الشجي، تتنقل معه ما بين الكلمة والصوت والموسيقى، لترى جمال وروعة فلسطين من خلال الكثير من الأعمال التي أنجزها وأدّاها

> من طفولتنا المبكرة اخترق صوت محمد أذاننا ولم يغادر، وهو يروي سيرة الأبطال في بيروت وهم يحفرون بالفخر سيرة الأجداد

الفنان محمد هباش، هو المنفي قسراً عن بلاده؛ لاجئ إلى سوريا، مولود قبل نكستنا بسنة، ولأنه سليل عائلة فلسطينية حافظت على التراث والوعد بالعودة إلى الديار، كانت بدايته مرتبطة بالنضال الوطني الفلسطيني منذ طفولته المبكرة، انخرط محمد في هذه المهمة، وما يزال على الوعد، متشاركاً مع شقيقه خالد عازف القانون والمجوز، إضافة إلى أمنة وفاطمة وخليل، يؤرّخ لكل مراحل النضال الفلسطيني، وكل محطاته، يغني للشهداء وللمدن، ويحدث الذاكرة الفلسطينية من باب الفن الفلسطيني الملتزم.

لهذا، فإن سبر أغوار تجربته مهمة شاقة وصعبة، ويلزمها الكثير من التأمل وفهم المعنى، قبل دخول محطاتها ورسم معالمها. فنحن هنا أمام فنان فلسطيني استخدم الصوت والكلمة والموسيقى في تجربة لا تزال ماثلة حتى اللحظة هذه، والوجهة واحدة ومعروفة، لذا ليس مستغرباً عليه أن يغني لكل الفلسطينيين، ويبرز شهادة الأبطال منهم، أي أي لون سياسي انتموا، وإن كلّفه ذلك دفع ضريبة الموقف. فهو ابن فلسطيننا البار، تسكنه روح الفنان الحقيقي الذي يعمل على واجب رسالي، التزم به وتعهّد أن يمشي عليه، متجاوزاً كل الأطر الحزبية. نراه يرسم شوارع طبريا، بلدته التي هجر منها، ونلقاه في حارة الياسمينة في نابلس، ونخرج معه من سجن عكا، ونصلي في القدس، كما يصف أحوال غزة: «كل وحوش الغابة تحدتنا». عندما سكن قضية شعبه اتضحت رؤياه وبانت تربته.

نحن لسنا خبراء في المقامات الموسيقية التي ألفها ولحنها، ولكنه يجذب ذائقتنا الموسيقية ويتعبها، يفرحها ويشجيها، بعدما زاوج بين التراث والحداثة، ولا ضير طالما مجرى النشيد واحد، حتى لو كانت وروده أقل على حد وصف شاعرنا محمود درويش.

من طفولتنا المبكرة اخترق صوت محمد أذاننا ولم يغادر، وهو يروي سيرة الأبطال في بيروت وهم يحفرون بالفخر سيرة الأجداد والراية الواحدة، لنراه مع انتفاضتنا الكبرى، يطل علينا من فرقة «الجذور»، يحاكي صغيرها وكبيرها، ليعود مع الانتفاضة الثانية يزيّن ملحمتها، ويعطيها بسخاء عصارة فنه، فهو ابن فلسطيننا البار الذي لا يتعب ولا يكلّ المتابعون لتجربته يدركون أنها تعاني الخذلان؛ فهذه التجربة بحاجة إلى المأسسة والدعم والتبنّي من قبل الجهات الرسمية الفلسطينية، فـ«العاشقين»، الفرقة التي نشتت بأسماء أخرى، لا بد لها أن تكون فرقتنا القومية الأساس، وممّن غيرها وثّق كل عذاباتنا ونضالاتنا بقالب فني دخل كل بيت فلسطيني؟ يكفي أن يسمع أطفالي أغنية جديدة لمحمد وفرقته حتى يتسمّروا في أماكنهم منصتين مردّدين غناءه، وهم الذين ولدوا بعيداً من الديار ويتكلمون بلغة أخرى غير لغة بلادهم، أليس هذا هو «النجاح»، وإن لم يكن كذلك فما هو إذاً؟

«كتيبة العاشقين»

منذ النكبة، تميّزت الأغنية الفلسطينية وروافدها بالكلمة واللحن بخصوصية حافظت فيها على مزاياها حتى هذا الوقت. فضياع الوطن هو أكبر المآسي، وسيرة الشعب المعذب في الوطن والشتات هي سيرة تتلى في الشعر والموسيقى ومختلف أشكال الأدب. وعندما نقول الفن الفلسطيني، يعني بالضرورة أن ترفق «الملتزم» في ثنايا الجملة، فالالتزام في هذه الحالة هو الانضباط. فزمن الترحال والمنفى والغربة، وحتى العيش تحت حراب الاحتلال، كلها دوافع للالتزام حتى يعود الحقّ لأصحابه ويستقيم زمنهم.

غنّى محمد سيرة القسام، ثورة الأجداد الأولى، وأرّخ لها، واستفاض في الثورة الفلسطينية المعاصرة، ليصل إلى قلب الوطن في جولات شعبه الثلاث في الانتفاضات المتتالية. وحين يخفت الكفاح، كان محمد يعمّق تجربته لتلاقي أخواتها العربيات، مضيفاً إليها نكهة فلسطينية، ولمّ لا ونحن أبناء الساحل السوري تتداخل فينا المشتركات؟ لكن غيابه عن فلسطين الضفة سرعان ما يحضر متألقاً مرة أخرى، فمحمد وفرقة «العاشقين» أصبحا ملتزمَين، هو عمادها ومدادها قولاً ولحناً، حتى لو طار به المنفى إلى البلاد البعيدة، تبقى فلسطين الحاضرة الدائمة، فلسطين «من المية إلى المية»، التي يمشي ويروي حكايتها وحكايتنا معها، فهي التي لا تقبل القسمة، إمّا أن تعاش كلّها وإمّا النضال من أجلها.

منذ أن وطأت أقدام الغزاة البلاد، لم يحمل الشعب الفلسطيني البندقية فقط، لقد حمل معها كل وسائل النضال واستخدمها في سبيل إثبات الحق، والشعب الحي هو من يفعل ذلك، لهذا يصحّ القول في محمد وإخوته وزملائه في العمل وكل من واكبوه أنهم «كتيبة العاشقين» - شقيقة «كتيبة العرين» و«كتيبة جنين».

حسين نازك غنّوا الفلسطين

في منزله في دمشق، يستقبلنا ابن مدينة القدس، ذو الـ 81 عاماً، الفنان والموسيقار حسين نازك، أيقونة الفن الملتزم وأحد مؤسّسي فرقة «العاشقين» الفلسطينية. لم يمنعه مرضه من إجراء هذا الحوار الذي نجوب فيه معه ذاكرة تاريخ زاخر وتجربة فنية وطنية استثنائية

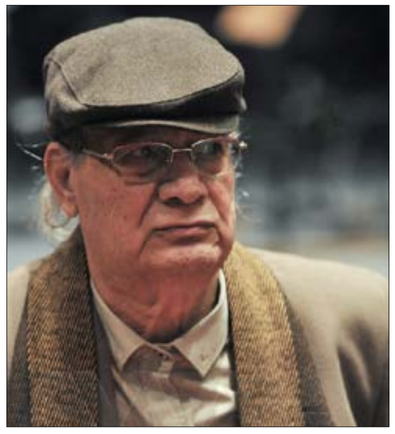

شهادات

شيخ الموسيقى الفلسطينية والعربية

الأستاذ حسين نازك هرم كبير، ومهما تحدثنا عنه لا نستطيع أن نفيه حقه، وأنا تتلمذت على يديه منذ كان عمري ثلاثة عشر عاماً. بدأت معه في برنامج «افتح يا سمسم»، وشرف كبير لي أنه أستاذي ومعلمي وشيخ كارنا، والمخزون الكبير من الموسيقى الذي لديّ، السواد الأعظم منه، هو ممّا تعلّمته على يديه، لذلك فإن شهادتي به مجروحة، لكن يجب أن نقول الحقيقة، له فضل كبير علينا جميعاً، وعلى الأغنية الفلسطينية وكذلك على الأغنية العربية. لقد تعلمت منه كيف نتقن التلحين والموسيقى، وإلى الآن أستشيره أحياناً عندما أكتب شيئاً للأوركسترا، ودائماً لديه ما ينصح به ويقدمه لي، وخلال الفترة الطويلة التيترافقنا خلالها معاً، كنت معه وبجانبه في الأستديو والمسرح والبروفات، وهو بالنسبة إليّ مدرسة كبيرة وعريقة وهو فنان وإنسان محب للجميع، وهرم كبير نسأل الله أن يبارك في عمره.

محمد هباش (من فرقة «العاشقين»)

التزم الموسيقار حسين نازك، ابن مدينة القدس، منذ بداية مشواره الفني والنضالي، بقضايا الوطن والإنسان، فكان وجوده ملحناً في أناشيد الثورة الفلسطينية الأولى، وتابع مشواره، فوضع الموسيقى التصويرية والألحان لأغاني مسلسلي «بأم عيني» و«عز الدين القسام»، وقدم مشروعه الأهم (فرقة العاشقين) منذ عام 1976، والتي حدد شعارها وهويتها منذ البداية «فلسطين نغنّي». حسين نازك صاحب الكثير من الألحان للمسرح والسينما والتلفزيون، وعلى رأسها مسلسل الأطفال الشهير «افتح يا سمسم».

محمود الخليلي (فنان تشكيلي وممثل)

حاوره: نعيم إبراهيم

■ يصف الشاعر أحمد دحبور تجربة فرقة «العاشقين» بـ«التجربة الجذابة للمنصة والجمهور، والتي حملت في ثناياها الهمّ الفلسطيني الجمعي، وجرح الوطن النازف. ورسمت في فضاء الكون أملاً، وفي خيال الشعب ثورة وحرية. وهي تجربة واقعية تستحق أن تؤرخ». ماذا تقول عن هذه التجربة الآن؟

ما لا يعرفه بعض الناس، أن فرقة «العاشقين» كانت نتيجة تجربة، بدأنا بأغان معينة، دوّرناها وبحثنا عن اسم لمجموع هذه الأغاني واتفقنا على اسم (فرقة أغاني العاشقين)، بمعنى أنها أغاني الناس الذين يعشقون فلسطين. من هنا، كانت أهمية الفرقة واستمراريتها، ولا تزال حتى اليوم، والذين أسسوا الفرقة كانوا من الشباب، ووصلوا اليوم إلى أعمار متقدمة، كلهم غنّوا أو عزفوا أو رقصوا أو فعلوا أي شيء ضمن «العاشقين»، كانوا يفعلون ذلك عشقاً لفلسطين، فعزفوها وغنوها ورقصوا من أجلها، بطريقتهم، بطريقة «العاشقين»، وعلى الكل أن يفعل ما يجب من أجل فلسطين، وفنياً غنّوا واعزفوا وارقصوا وأبدعوا من أجل فلسطين، لكن بسوية عالية ورفيعة بمستوى هذه القضية.

■ يُزعم أن «العاشقين» انحازت إلى قوى فلسطينية معينة في مجارة لسياساتها ونهجها، كيف ترد على ذلك؟

هذا غير صحيح، لأن دور الفرقة وغيرها من الفرق الغنائية الملتزمة كان ولا يزال هو تاريخ مراحل النضال للشعب الفلسطيني عبر الأغنية السياسية والوطنية. وحتى بعد اتفاق أوسلو لم نقترب من السياسة، وبقينا على مسيرتنا، وليست مهمتنا أن نصلح الغلط، لكن مهمتنا «نحكي الصح»، وأعطيك مثالاً من الراهن، استمعت إلى أغان عن عملية القدس التي حصلت في الآونة الأخيرة، وقبلها أغان عن مجزرة مخيم جنين، وكل هذه الأغاني كانت معبرة، سواء بالنسبة للعملية أو للمجزرة، وهؤلاء الذين قدموا هذه الأغاني ليس لهم علاقة بـ«أوسلو»، لذلك، فإن مهمتنا، كانت ولا تزال، أن يثبّت القائمون على الفرق الغنائية كل الأحداث التي يعيشها الشعب الفلسطيني من انتفاضات وثورات، فالأغاني هي التي رسخت في ذاكرة الناس أسماء الشهداء محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير، منذ الثلاثينيات وحتى اليوم، وستبقى كذلك في المستقبل تثبّتها في الذاكرة الفلسطينية.

■ ثمة من يعتقد بموت الأغنية السياسية في الساحة الفلسطينية والوطن العربي راهناً، كيف ترى الأمر؟

لا أعتقد ذلك، لأن الأغنية هي من الداخل، من فلسطين، وهناك عدد كبير من الشباب اليوم نجحوا في أغانيهم وهم صادقون بأدائهم، وهم يمثلون الاستمرارية والبقاء والحفاظ على التراث عبر الأغنية، وأذكر مثلاً على ذلك نوح إبراهيم الذي غنى للوطن في ثلاثينيات القرن الماضي، واستمر وكأنه قام بذلك قبل وقت قريب، لهذا فإن الأغنية تترسخ بالذاكرة ويستمر الناس بالاستماع إليها دائماً، هذا عدا عن العديد من الأغنيات التي تصدر بين حين وآخر وتقدم معنى وقيمة وأهمية، وكذلك استمرارية للماضي الملتزم بالقضايا الجدية.

■ ما هي العراقيل والتحديات التي تواجه الفن الفلسطيني الملتزم اليوم داخل فلسطين وخارجها؟

لا شك أن التحديات والعراقيل موجودة، لكن عليك أن تشتغل بما يرضي ضميرك، وتؤدي واجبك بالشكل الصحيح، ومن هنا لا قيمة للعراقيل، لذلك لم أكن أنظر خلفي، مهما كانت الظروف، والحمد لله كانت مسيرتنا موفقة، وأتواصل مع الذين عملوا معي مثل يعرب البرغوثي ومحمد هباش الذي يتصل بي بين فترة وأخرى من أوروبا للاطمئنان عليّ، وآخذ المشورة والنصيحة حول أي عمل فني يقوم به.

■ هل يستوي الفن الملتزم والمال، وكيف تتحوّل الأغنية إلى سلاح؟

يجب أن يعمل كل واحد بما يمليه عليه ضميره، ولا ينتظر من أحد لا جزاء ولا شكوراً، وعليه ألّا يشتغل كمرتزق، وأن يكون العمل مخلصاً بأنه ذاكرة الوطن، وأن الأغنية هي جزء من الأرشيف الوطني للشعب الفلسطيني، لذا يجب أن تكون صادقة في شحذ همم العالم، بغض النظر عن مردودها المالي، وهذا ما جعل فرقة «العاشقين» تختلف عن غيرها، ولا تكون تابعة لأحد أو لأي جهة، فهي أبدعت منذ بداية انطلاقتها على الرغم من إمكاناتها المالية الشحيحة.

وكي يحافظ الإنسان الفنان على تراثه، وتجديداً التراث المعاصر، يجب أن يمتلك ثقافة جيدة وإلا يستنسخ نفسه. وأذكر مثالاً على ذلك أغنية «من سجن عكا طلعت جنازة» لم نغيّر فيها شيئاً، لكننا أعطيناها الروح الجديدة التي جعلت الناس لا يقولون عنها أغنية تراثية بالمعنى المجازي.

■ هل وجد حسين نازك في حياته من يشبه روحه؟

لقد تعاونت عبر مسيرتي الطويلة مع كثير من الشعراء الذين كتبوا عن فلسطين، أو أي مدينة وقرية فيها، وقمت بتلحين قصائدهم إلى أغان، ومن هؤلاء، على سبيل المثال وليس الحصر، ناهض الريس أبو منير رحمه الله، الذي طلبت منه كتابة أغان لكل مدينة فلسطينية، وأيضاً أحمد دحبور الشاعر اللطيف الذي استخلت أنا وهو عشرات الأغاني، فالأغنية تتألف من بندين هما الكلمة واللحن، ولأن الكلمة تستفزّ الملحن كي يترجمها، سألتُ مذيعة مصرية أحمد دحبور ذات يوم كيف عملت أغنية «والله لزرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر» فردّ عليها بالقول: أصدرت أربعة دواوين شعرية في تلك الفترة، فما وصلوا إلى الناس مثل ما وصلت هذه الأغنية التي اشتهرت كشاعر من خلالها، وهذا مكسبنا، أنا حسين نازك وهو، مدى قربنا من العالم.

■ في عمرك ويومك هذا، في لحظتك هذه، إذا طلب منك الذهاب إلى أرضك وبيتك في مدينتك القدس، ماذا ستكتب وتحكي لهما؟

أكتب لأرضي وبيتي، وأقول لهما إن العودة حتمية، ولا بد من يوم نرجع فيه كلنا إلى مدينتنا وأرضنا وسمائنا وأقصانا، وإلى كل شيء في القدس، ففيها كل شيء يرتبط بنا، ولن يصحّ إلا الصحيح أولاً وأخيراً. أمّا القدس، فهي مزروعة في شراييننا، ولن نتخلّى عنها مهما فعلوا ومارسوا، والأرض بحدّ ذاتها تتمسك فينا بقدر تمسكنا فيها.

■ ما هي رسالتك للجيل الفلسطيني والعربي الفني الحالي والملاحق، وهل يمكن رفد متحف المستقبل بالجديد كلاماً ولحناً؟

إن المجال متاح للجميع، لأن الفن إبداع، والإبداع ليس له حدود، ويمكن للأجيال المقبلة أن يبدعوا أكثر مما قدمنا نحن، وهكذا يمكن الحفاظ على هويتنا وعلى إبداعنا.

البلاد

على الغلاف

حسين منذر
صوت الثورة باقٍ

واصف حميدة

ثمانينيات القرن الماضي، وعلى أحد أكبر مسارح الكويت، ذلك البلد الذي كان حاضناً للثقافة والمثقفين العرب آنذاك، يقف رجل ملامحه تفيض بالعنفوان، ينشد بصوت جبلي أغاني تهز القلوب وتؤرق مضاجع العدو، ينظر في عيون الحضور، يتوقف للحظة ويغض باكياً، ربما كان آخر المنضمين إلى حالة البكاء الجماعي في صالة المسرح تأثراً بأغنية «من سجن عكا» التي كان يغنيها حينها. هو حسين منذر (أبو علي) المغني الرئيسي في فرقة «العاشقين»، صاحب الصوت الذي صدح ثورةً ونضالاً: «لن أنسى هذا المشهد، كنت منسجماً بالغناء، وعندما نظرت إلى الجمهور، وجدت الحاضرين غارقين في البكاء، توقفت عن الغناء وبكيت معهم عالياً، كان الجمهور رائعاً وصادقاً ويبكي بحرقة، وشعرت بوحدة حال معه، هذا ما يميز حفلات العاشقين، كنا والجماهير نذوب معاً، تجمعنا القضية والحلم والهدف والغصة والأسى».

أبو علي العربي

ذو الحضور الطاغي والصوت القوي، يقف على المسرح شامخاً متجذراً فيه كشجرة زيتون يصفّق بيديه فتشتعل الصالة تصفيقاً يعلو صوته وتعلو معه أيدي الحاضرين رافعةً أعلام فلسطين. يظنه كثيرون سوري الجنسية تبعاً للكنته الشامية الأصيلة، إلا أنه ينحدر من القرى السبع اللبنانية-الفلسطينية التي حصل لاجئوها على الجنسية اللبنانية، يعيش اليوم في دمشق التي شهدت انطلاقته مع فرقة «العاشقين»، وتحديداً من مخيم اليرموك الذي بقي مقيماً فيه حتى اضطرته الحرب السورية للنزوح عنه. يقول لـ«الأخبار»: «أنا عربي وأعشق فلسطين. أعشقها عشقاً لا يوصف. دمي واسمي وعنواني عربي فلسطيني أحمل بداخلي كل المكوّنات العربية».

ولادة «العاشقين»

لا يزال صوته يصدح على خشبة المسارح العربية والعالمية منادياً باسم فلسطين والشعب الفلسطيني منذ بدايته مع الفرقة: «جاءت فكرة تأسيس فرقة العاشقين مع الأغاني التي كتبها الشاعر أحمد دحبور وقُدمت خلال مسرحية المؤسسة الوطنية للجنون والتي ألفها الكبير سميح القاسم وأخرجها المبدع السوري فواز الساجر وقُدمت على صالة تشرين وسط دمشق عام 1977». وهو ما أكّده الشاعر الفلسطيني الراحل أحمد دحبور الذي ألّف العديد من أغاني «العاشقين»، حيث ذكر في مقالة له عام 2013 في صحيفة «الحياة الجديدة»: «كانت أغنية "اللوز الأخضر" التي لحّنها حسين نازك هي النواة الأولى لفرقة أغاني العاشقين والتي قُدمت خلال مسرحية المؤسسة الوطنية للجنون... ونازك هو من أطلق على الفرقة اسم أغاني العاشقين وكان له الفضل بتجميع أعضاء الفرقة».

أي فرقة ملتزمة تحقق النجاح عندما تمتلك ثلاثة عناصر هي: الكلمة الصادقة واللحن الرائع والصوت الجميل، إذا كانت هذه كلّها مجتمعة هنا كلّها تبدأ النجاحات، وهو ما حقّقته الفرقة

بدايات مسيرة الفرقة ومسيرتها الجماهيرية الواسعة «حفلة عدن الذائعة الصيت»، كانت «علامة ونقطة تحول في جماهيرية العاشقين على المستوى العربي، حضرتها قيادات منظمة التحرير الفلسطينية وعلى رأسهم الرئيس الراحل ياسر عرفات، إلى جانب رئيس اليمن الجنوبي علي ناصر محمد، وسفراء عدد من الدول، وحشد جماهيري واسع، لتتوالى بعدها نجاحات الفرقة في مختلف العواصم العربية والعالمية».

منذر والرحابنة

ورث منذر، كما يقول، عن والده الصوت الجبلي القوي الذي يحمل بين طبقاته كل مشاعر الثائر الفلسطيني من حب وغضب وأسى وحنين، ووظّف هذا الصوت في خدمة الفن الملتزم الذي يناصر القضية الفلسطينية، ففنّى لثورة الـ 36 وخلّد أسماء الشهداء الثلاثة الذين أعدمتهم سلطات الانتداب البريطاني، وأشعل القلوب بمواويل الفلاح والثائر الفلسطيني، ووثّق بأغانيه أهم المراحل التي مرّت بها الثورة الفلسطينية، وفي مقدّمتها الأغنية الشهيرة لـ«العاشقين» «اشهد يا عالم علينا وعلى بيروت» التي وثّقت معارك الاجتياح الإسرائيلي لبيروت وخروج منظمة التحرير منها.

«لي تجارب فنية كثيرة في البدايات قبل العاشقين، لكنّ عشقي للأغنية الملتزمة وتحديداً لفلسطين منذ نعومة أظفاري، تغلب عليّ ودفعني إلى تبني هذا اللون الغنائي الذي تُوج بانضمامي إلى الفرقة». يروي منذر حادثة لقائه بالرحابنة في دمشق: «خلال إحدى بروفات الفرقة في معرض دمشق الدولي كنت أغني وصادف وجود الفنان عاصي الرحباني رحمه الله والسيدة فيروز، فجذب صوتي اهتمام عاصي الذي تحدث إليّ بعد انتهاء البروفة وأبدى إعجابه بصوتي الجبلي وقوته، وعرض عليّ العمل مع السيدة فيروز، وهي فرصة يحلم بها أي فنان بالعمل مع هؤلاء العمالقة، إلا أني اعتذرت منه ومن السيدة فيروز لأن «العاشقين» تجسد كياني ولن أتركها ما دام الدم يجري في عروقي».

نغني للنصر

يرى منذر أن «أي فرقة ملتزمة تحقق النجاح عندما تمتلك ثلاثة عناصر هي: الكلمة الصادقة واللحن الرائع والصوت الجميل، إذا كانت هذه كلّها مجتمعة هنا تبدأ النجاحات، وهو ما حقّقته الفرقة عندما كتب كلمات أغانيها أحمد دحبور وتوفيق زياد ونوح إبراهيم ولحّنها حسين نازك وأدّيناها بأصواتنا، بالإضافة إلى العطاء من القلب النابع من إيمان أعضاء العاشقين الراسخ بفلسطين وقضيتها، وأن التحرير قادم وسياتي اليوم الذي نحيي فيه حفلاتنا على أرض الوطن ونغني للنصر».

لمّ الشمل

يقول أبو علي: «لا أخفيكم، الأحداث السياسية التي جرت في لبنان وخروج منظمة التحرير وما تلاها من مخاضات أثّرت على مسيرة الفرقة، أدّت بالمحصّلة إلى توقفها عن العمل في بداية التسعينيات إلى أن جاء رجل الأعمال الفلسطيني مالك ملحم عام 2009 ومدّ يد المساعدة بالمال والعطاء بكل ما يستطيع وعادت الدماء تجري في عروق الفرقة مع مجموعة من الأعضاء القدامى إضافة إلى أعضاء جدد من الجيل الشاب من الفنانين والموسيقيين الملتزمين، وعادت إلى إشعال المسارح العربية من جديد بأغانيها الثورية المتمردة على الاحتلال»، ويضيف: «لكن تبقى الحفلة التي نُظمت على جزء من أرض الوطن عام 2010 بمثابة الحلم الذي بدا يتحقق... والآن نحن موجودون ولا نزال نعطي وسنبقى نعطي إلى أبد الآبدين».

سنبقى نغني

أنجزت «العاشقين» على مدى أعوام طويلة دوراً وطنياً مميزاً وحضوراً، ووثّقت تاريخ شعب يناضل لنيل حقوقه، فغنّت للشهيد والحرية والوطن، وحملت الأغنية الفلسطينية وجالت فيها العالم ونقلت صوت الشعب الفلسطيني وقضيته إلى مختلف المسارح العالمية: «نضالنا في الفن الذي نقدمه. وسنبقى القضية في عقولنا وقلوبنا وأصواتنا. نحن نغني لفلسطين. نحرر ونثور. نغني في الأعراس. نغني في الأفراح والاتراح. بكل مجال نغني وسنبقى نغني».

بريد الأسرى

«نتنفّس حرية» في غزة: كي لا يصبح الأسرى جثثاً بأرقام

يوسف فارس

غرفة مظلمةٌ يتصدّرها مشهد لثلاجة تنخز برودتها عظمك، ورقم معلّق بأخمص القدم، هي آخر الصور التي ستنحفر في ذهنك، وأنت تغادر معرض «نتنفس حرية» الذي أقامته الحركة الوطنية الأسيرة في قطاع غزة على مدار أيام الأسبوع الماضي.

قاعة منتجع «الشاليهات» الفسيحة، التي ازدحمت بآلاف الزائرين، أعطت فرصة نادرة للأهالي، لمعايشة ما هو أكثر من المعاناة اليومية التي يحياها نحو 4500 أسير في سجون الاحتلال. في زوايا المعرض، تحضر الأشواق والهواجس والأمنيات في شكل لوحات فنية ومنحوتات ورسائل مكتوبة بعث بها الأسرى أو هرّبوها بعناءٍ شديد. أبو الهيثم، وزوجته ريم، وأبناؤه محمد وهيثم، وهيا وهنية التي أمست عروساً بعدما فارقت والدها وهي في سنّ السادسة من العمر، وزفّت أخيراً إلى عريسها نائل. سيعيش من حضر المعرض خارج جدران الزمان والمكان، وهم يقرأون ما خطّه الأب المغيّب بقلم الحبر الأزرق على خرق الورق لزوجته، يسأل بشغف وفضول بالغين، عن أدقّ التفاصيل: عمل العريس وأخلاقه وعائلته ومدى انسجام ابنته معه، عن مراسم الزفاف ودراسة الأبناء، عمّن حضر الفرح من الأقارب والأصدقاء ومَن تغيّب، ثم ستغيب طويلاً، وأنت تقرأ بعين القلب رد أمّ الهيثم على زوجها، الأشواق والفقد، عبء المسؤولية والتظاهر بالقوة والصبر، وأكثر من ذلك، الإخلاص والدفء العائلي الذي لم تبرّده غياهب السجون.

المعرض الذي أقامته الحركة الأسيرة بالتزامن مع يوم الأسير الفلسطيني الذي يوافق 17 نيسان من كل عام، شاركت فيه مختلف المؤسسات الأهلية والرسمية التي تعنى بشؤون الأسرى، ضمّ في زواياه، وفق ما أوضحت نور سليم، وهي منسقة الحدث، زاويا فنية تضمنت لوحات ومجسمات صنعها فنانون فلسطينيون وأسرى محررون، ومشاهد تمثيلية تعرض طوال أيامه الستة، تعكس تفاصيل الحياة اليومية في السجون. ضم المعرض أيضاً، بحسب ما تشرح سليم لـ«الأخبار»، محاكاةً «لمنام الأسرى على سرير الأسر "البورش"». وبالإضافة إلى رحلة النقل عبر «البوسطة» القاسية، أقيمت ندوات وورش عمل، وزاوية علمية يعرض فيها الإنتاج الثقافي للأسرى من كتب وروايات ومؤلفات، وزاوية مرئية وأخرى إعلامية، وعروض مسرحية، وزاوية أخرى للتراث، يعرض فيها «ما أنتجه الأسرى في سجونهم من ملابس أهدوها لأبنائهم».

الأسير ماجد أبو القمبز، المحكوم 19 عاماً والمعتقل منذ عام 2006، هو واحدٌ من هؤلاء الذين استطاعت بعض قطع الملابس التي صنعها لأبنائه الفكاك من شباك السجون، ووصلت إلى جدران المعرض، كُتب إلى جانب معروضاته المصنوعة ببدائية واتقان وحب كبيرين:

«قد يرى البعض تلك القطع المعلقة مجرد مقصوصات قماشية، وقد لا يلقي لها بالاً، ولكننا اليوم نعرض فستاناً صغيراً وثوب صلاة، لصبية أصبح عمرها 16 عاماً (...) صاحب اللمسات قام بتفصيل ما ترون لابنته الطفلة مستخدماً كسوة قماش وقتما كانت في ربيع الـ 6 سنوات».

«نتنفس حرية» واحد من المعارض النادرة، الذي يتابعه الأسرى في سجونهم عن كثب، وقد أبدوا، وفق المنظمين، إعجابهم في ما حققه من حضور، استطاع أن يوصل حياتهم إلى كل بيت، يقول حازم أبو حسنين، وهو الناطق باسم مكتب إعلام الأسرى، إن المعرض استطاع أن يجمع مختلف ألوان الطيف الفلسطيني، بمعزل عن الخلافات الحزبية، لتسليط الضوء على قضية الأسرى. أما الجديد والمميز، وفق ما يقول أبو حسنين لـ«الأخبار»، فهو «عرضُ لمشاهد حصرية، استطاع الأسرى تصويرها في داخل الزنازين، نقلوا من خلالها التفاصيل الدقيقة لحياتهم، وقد أعددنا لها غرفة خاصة لعرضها، بعيداً عن كاميرات الإعلام حفاظاً على أمن الأسرى».

في غرفة مظلمة، تتوسطها شاشة كبيرة، يحبس عشرات الحضور أنفاسهم، وهم يشاهدون لأول مرة مقاطع حية يظهر فيها الأسرى في سجون هداريم والنقب ونفحة، من وسط العتمة، يعلّق الأسير المحرر أحمد القدرة، وهو مدير مكتب إعلام الأسرى، على ما تنقله الشاشة من مشاهد أسير يضحك بملء فيه، وهو يتنقل بحذرٍ مثل مراسلٍ صحافي استقصائي، بين أقسام السجن، مجموعةً من الأسرى يحيطون بزميل لهم، يرقبون ردة فعله وقد رتّبت زوجته هدية مفاجأة له في عيد ميلاده، سعادة غامرة ونكات سمجة وأخرى لذيذة من زملائه على «المشهد الرومانسي» تثير مشاعر مختلطة وصادمة. يعلّق عليها القدرة بالقول: «لا يمتلك الأسرى سوى إظهار أعلى مستويات الفرح، الضحك في الأسر هو خط الدفاع الأول، والسلاح الذي يقهر فيه الأسرى سجانيهم».

مشهد آخر لا يقل عما سبقه دهشة، يقف الأسير الشيف، وقد أعدّ سكيناً، حيث ممنوع على الأسرى اقتناء السكاكين، من بقايا بعض المعلبات المعدنية، حوله يتجمع زملاء القسم، وهم يرقبون خطوات إعداد طبق المقلوبة، تتلاشى الابتسامة، وتحضر الحسرة حينما تظهر، لأول مرة أيضاً، مشاهد حصرية للأسير المريض بسام السايح، إلى جانبه شقيقه أمجد الذي ألّف عقب رحيله كتاباً حمل عنوان «بسمة وداع». يشرح القدرة: «الإهمال الطبي سياسة إسرائيلية قذرة، من يعاني من ألم في أسنانه مثلاً، يتطلب الكشف الطبي دون العلاج بعد تقديم الطلب لمصلحة إدارة السجون خمسة أشهر كي يعرض على الأطباء، في عيادة/ مسلخ سجن الرملة، من تكسر يده، سينتظر عاماً كاملاً أو أكثر ليحظى بصورة أشعة».

قضى بسام السايح، الذي كان قد أصيب بسرطان العظام في عام 2015، بعد أربع سنوات من اعتقاله. أعوام قضاها حتى استشهاده في أيلول 2019، لم يحظ فيها بأيّ رعاية طبية حقيقية، ابتسامة بسام وهو بين رفاقه الأسرى آخر المشاهد التي ستقرأها عينك، قبل ثلاجة الموتى ومقابر الأرقام، ورسالة ممهورة بتوقيع الأسرى: «لا نريد أن ننتهي جثثاً باردة وأرقاماً صماء».

84 يوماً

يواصل الأسير الشيخ خضر عدنان إضرابه عن الطعام لليوم الـ84 على التوالي والذي كان شرع فيه فور اعتقاله في 5 شباط

رسم نهاد علم الدين

الأخبار
al-akhbar
السبت 29 نيسان 2023 العدد 4902

المفكرة

زوق مكايل تحتفي بإلياس أبو شبكة

■ يحتفل «بيت الشباب والثقافة» زوق مكايل، يوم الأربعاء المقبل، بذكرى مولد الشاعر والكاتب اللبناني الراحل إلياس أبو شبكة (1903 ـ 1947/ الصورة)، وبتسليم جائزة الياس أبو شبكة في دورتها الثانية. بعد مجموعة كلمات، يسلّم رئيس لجنة التحكيم الشاعر هنري زغيب الجوائز للرابحين الثلاثة عن فئات: القصيدة الموزونة بالفصحى، القصيدة المحكية والمقطوعة النثرية. بعدها يُحتفل بذكرى مولد أبو شبكة مع زغيب الذي سيتحدّث عن الراحل ويقرأ من أعماله. وللموسيقى والنغم حصّة من خلال قصائد مغنّاة لأبو شبكة، كما ستُعرض قصيدة بصوت السيّدة فيروز، كما يؤدّي غيرها عزفاً وغناءً فادي أبي هاشم.

جائزة إلياس أبو شبكة: الأربعاء 3 أيار (مايو) المقبل ـ الساعة السادسة والنصف مساءً ـ المكتبة العامة في «بيت الشباب والرياضة» (زوق مكايل). الدعوة عامة. للاستعلام: 81/337399

MACAM حضناً للنحت

■ اليوم السبت، يدعو «متحف الفن الحديث والمعاصر» (MACAM) الفنانين ومحبّي الفن إلى الاحتفال بـ«يوم النحت العالمي» الذي يصادف في السبت الأخير من شهر نيسان (أبريل) من كلّ عام. سيتيح هذا الفضاء الفنّي والثقافي الذي يحتضن باقة منوّعة من المنحوتات والتجهيزات الفنية للراغبين فرصة الرسم داخل معرضه الدائم «بانوراما النحت في لبنان» في أجواء «تبعث على الوحي والإلهام»، وفق ما يرد في نصّ الدعوة. بعدها، يحين موعد الجولات الإرشادية المجانية في أرجاء المكان الساحر.

احتفال بـ«يوم النحت العالمي»: اليوم السبت ـ من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثانية والنصف بعد الظهر ـ «متحف الفن الحديث والمعاصر» في عاليتا (جبيل ـ شمال بيروت) للاستعلام والحجز: 79/157918

«عودة شمس» إلى بيروت

■ يفتتح «مركز بيروت للفن» (BAC)، في 18 أيار (مايو) المقبل معرض «عودة شمس» الذي يستمرّ حتى 16 أيلول (سبتمبر) 2023. يقدّم المعرض أعمالاً لـ 14 فناناً مستقلّاً وفرق فنية، تتحدى أشكالاً معيّنة من العنف، تلك التي لا ترتبط دائماً بمشهد أو حدث. ويستكشف أشكالاً مختلفة من العنف الخفي والكامن في بيئاتنا، طرق التعرّف إليها، رؤيتها والإحساس بها.

كيف يمكننا التحسّب لآثارها حتى لا تظلّ منتشرة في كل مكان؟ من له أن يشهد على هذه المصائب الزمانية والمكانية وحجم عواقبها؟ بما أنّ الكشف والشهادة لا يحدّان من دورات العنف المتكرّرة، يقدّم «عودة شمس» أعمالاً تتناول هذه الأسئلة وتقترح أشكالاً مختلفة للعمل، وفق ما يؤكّد المنظّمون. الفنانون المشاركون هم: أمنية صبري، إيناس حلبي، جمانة مناع، جوانا حاجي توما، خليل جريج (الصورة)، رانيا أسطفان، صبا عناب، عزيز هازارا، علياء فريد، كارولينا كايسيدو، ديفيد دي روزاس، كريستيان سليمان، كيمت داستان، لمياء أبو خضرا، نادية بسيسو وهايغ آيفزيان. علماً أنّ المعرض يفتح أبوابه من الإثنين إلى الجمعة من الساعة الثانية عشرة ظهراً وحتى السابعة مساءً، والسبت حتى الخامسة بعد الظهر.

افتتاح معرض «عودة شمس»: الخميس 18 أيار 2023 ـ الساعة السادسة مساءً ـ «مركز بيروت للفن» (كورنيش النهر). للاستعلام: 01/397018

أيّ واقع للصحافة؟

■ تدعو «نقابة محرري الصحافة اللبنانية»، يوم الأربعاء المقبل إلى المشاركة في إحياء «يوم حرية الصحافة العالمي» في مقرّ «الرابطة المارونية» (المدوّر).

تتخلّل النشاط كلمات للصحافية ريبيكا أبو ناضر، رئيس الرابطة السفير خليل كرم، نقيب الصحافة عوني الكعكي ونقيب المحررين جوزيف قصيفي (الصورة).

إلى جانب عرض وثائقي «الشهادة والدور»، تقام ندوة بعنوان «مهنة على طريق الزوال؟»، بمشاركة رئيس تحرير صحيفة «اللواء» صلاح سلام، المدير التنفيذي لصحيفة «لوريان لوجور» فؤاد خوري حلو والباحث والمستشار في التواصل نصري مسرّة. تدير الندوة الصحافية يمنى الشكر غريب.

إحياء «يوم حرية الصحافة العالمي»: الأربعاء 3 أيار (مايو) المقبل ـ مقرّ «الرابطة المارونية» (المدوّر ـ مبنى المجلس العام الماروني ـ قاعة ريمون روفايل ـ الطبقة الثالثة/ بيروت). للاستعلام عبر تطبيق «واتساب»: 81/887371

تصميم: هاشم رسلان

ما أزال أملك عَيْنَيَّ

تحرير «إنما»

مهما بدا وقع الأيام قاسياً، لكنّك عندما تلتفت إلى الوراء لترى ما قد فاتك، تتذكّر أن الغد القادم مكسوّ بالسخام، أو على الأقل هكذا يبدو لك. لا يكفي التحديق في الشيء لمعرفته بل يجب رؤيته، لأن الرؤية صنو الإدراك. يتيح النظر ما هو أبعد من الفرجة، التي تكاد تقتلنا جرّاء تناولنا جرعة «مشاهدات» زائدة، وأكثر من الوقوف على مضض، بأيدٍ مكتوفة مصابين بالخرس نراقب حدوث ما لا ينبغي حدوثه. يجيز النظر تبيان ما يكتنفه الغموض، وبدرجة أقل، اقتحام العالم والكشف عنه ولو بدت صورته مرعبة، ذلك أفضل من ضجر الانتظار وضوضاء الزحمة، ولأن صورة العالم هي أيضاً، صورتنا نحن، أو كما قال جيجك: «إن الصورة، بالطبع، تكمن في عيني، لكنني أيضاً في الصورة».

لي عينان وأرى: العظام تبرز من الوجوه، قطّة تلاحق فأراً، معرض تشكيلي مكوّن من حاويات قمامة يُعرض مجاناً على الأرصفة، ثرثرة عبثية لا تبوح بشيء سوى توكيدها أن أصل الكلام صوت وصراخ، حذر وترقب وهدوء أشد صخباً من مدافع الحرب. اليد ترتعش لا يمكن لجم رجفتها، لكن لا يا صديق، لا نريد أن نصدق أن الخروج من المنزل، هو كما وصفته مرة، «مغامرة كبيرة». الفوضى تعمّ في الخارج والمدينة منكوبة، تستحضر الجحيم عندما تزور الدوائر الرسمية، وأبطال شكسبير تحوّلوا إلى رماد، لكن وبالرغم من هذا على أحدنا أن يرتحل عن العتمة الكامدة ليقبض على الضوء. فقط عند لحظة الخروج هذه، باستطاعتنا أن نرى، أن نكشف مثلاً مدى عشق الحكومات للعمى وتواطؤ العالم معها. كيف أنها تحت ذرائع واهية تمنع عنك النظر في قضايا لأنه ممنوع عليك معرفتها. وبعيداً عن فانتازيا الحكومات في المراقبة والعقاب، أو تهويمات الأخ الأكبر الذي يتربّص بك، هناك الابن التائب المعذّب، ذلك الذي ضلّله القدر وأعماه؛ لا تنسَ أوديب، الملك الذي اقتلع عينيه عندما أدرك فعلته المهولة. الأعين تفتق الغشاوة، كأنها الوحيدة القادرة على القبض على الأسرار، أترى؟

من القليل الذي بقي لدينا وسط هذا الخراب السقيم، هو أوقات متفرقة لأعصاب هادئة، وعينان تريان من ضمن الحواس التي ما زالت فعّالة. وحدها الرؤية كفيلة لإنقاذنا من الهاوية التي كلما التفتنا إليها بدا الوقوع فيها قريباً. ما أزال أملك عَيْنَيَّ، وما دمت تملك عينيك، فلا تُصْغِ إلى دي كابريو القائل: «لا تنظر إلى الأعلى»، هذه دعاية حكومية. أُنظرْ لترى، المهم أن تحافظ على قوّة عينيك، وأن لا تشيح النظر.

لقراءة ملحق «إنما»

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ رئيس التحرير
ابراهيم الأمين
■ مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

■ المدير الفني
صلاح الموسى

■ المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص. ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

■ الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
■ التوزيع
شركة الأوائل
15ـ 01/ 666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar

السبت 29 نيسان 2023
العدد 4902 السنة السابعة عشرة
Samedi 29 Avril 2023 nº 4902 17ème année

كلمات

ملحق
أسبوعي

www.al-akhbar.com

رسولة الأدب العربي إلى العالم

[2- 5]

سلمى الخضراء الجيوسي (تصوير اسامة سلوادي)

ملف

سلمى الخضراء الجيوسي ارتحلت إلى «النبع الحالم»

مؤرِخة وناقدة الحداثة العربية

شكلت النكبة والأحداث التاريخية وعيها الوطني والنسوي (سامة سلواديّ)

تغريد عبد العال

«الشعر والبحث كانا ملازمين لي دائماً» هكذا قالت الشاعرة والناقدة والمترجمة سلمى الخضراء الجيوسي (1926 - 20 نيسان/أبريل 2023) في أحد حواراتها، كأنها تؤكد أنّ البحث والشعر طريقان في مشروع حياتها الشامل، فهي مؤرخة وناقدة للحداثة العربية، حررت عشرات الموسوعات والدراسات بالإنكليزية لتعريف العالم الغربي بكنوز الأدب العربي والحضارة العربية، وقد كان لولادتها وسيرة حياتها أثر كبير على خياراتها في الحياة واتجاهاتها الفكرية والشعرية والحداثية. كما شكّلت النكبة والأحداث التاريخية ثقافتها وخطابها ووعيها الوطني، والنسوي على حد سواء، تماماً كما قالت في إحدى قصائدها: «بنيت لنفسي طموحاً وصغت لقلبي عرشاً ولوّنته من شعاع الأصيل».

ولدت سلمى من أب فلسطيني وأم لبنانية في نهاية العشرينيات، في مدينة السلط الأردنية. كان والدها صبحي الخضراء سياسياً ومحامياً مهمّاً، وأمها مثقفة وقارئة نهمة. عاشت طفولتها في عكا في أجواء سياسية مضطربة في فترة الثلاثينيات، أثناء الانتداب البريطاني، فشاركت في التظاهرات القائمة آنذاك، وكتبت قصيدتها الأولى، وهي في العاشرة من عمرها. أرسلها والداها إلى القدس للدراسة في «كلية شميت للبنات»، فاجتازت المرحلة الثانوية بتفوق، والتحقت بعدها بـ «الجامعة الأميركية في بيروت» لدراسة الأدب العربي والإنكليزي، فتزوجت من زميل لها في الجامعة وتنقلت بين الكثير من البلدان بحُكم عمله الدبلوماسي. في بغداد، استطاعت الجيوسي أن تنخرط في المشهد الأدبي، وقد أصدرت ديوانها الأول هناك: «العودة من النبع الحالم» (دار الآداب) عام 1960. في بيروت، انخرطت سلمى في أجواء مجلة «شعر»، وأماسي يوم الخميس فيها والتقت بشعراء مهمين أمثال يوسف الخال وأنسي الحاج، وخاضت معهم حوارات أثّرت بها وجعلتها في قلب الحداثة الشعرية والأدبية. ترك ذلك أثره العميق على وعيها الثقافي والشعري. مع ذلك، بقيت تهتم بالتراث وتوليه اهتماماً خاصاً. وقد انتقدت الشاعرة المجلة في ما بعد في كتابها، خصوصاً حماسة محرريها على ترجمة شعراء على حساب شعراء آخرين، وانتقدت في حواراتها أيضاً مع يوسف الخال تفكر في البناء واحترام التراث على الرغم من إعجابها بفكرة الحداثة والتجديد والمعاصرة. فالحداثة بالنسبة إليها هي الانفتاح على كل جديد مع احترام التراث العربي.

درست سلمى في ما بعد في لندن، ونالت شهادة الدكتوراه عام 1970 عن أطروحتها حول: «الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث» (ترجم إلى العربية عن «مركز دراسات الوحدة العربية» ـ 2001 ـ ترجمة عبد الواحد لؤلؤة). كان السبب وراء اختيارها للشعر كمحور لدراستها هو الحاجة إلى رسم خريطة لما يجري من تجارب في الصورة والوزن، ولأنّ الشعر كان هو الأعلى والأهم في سبعينيات القرن الماضي.

الذي يحاول أن ينقذ قلب إنسانة صادقة في عالم يملؤه الخراب والاحتلال والموت. وفي مجموعتها الشعرية «العودة من النبع الحالم» التي تحفر داخل الوجود الإنساني العميق، يظهر ذلك الألم العميق بالهزيمة والشتات والقلق والبحث عن خلاص. لم تنشر بعدها مجموعات أخرى سوى قصائد متفرقة ونشرتها عام 2021 تحت عنوان «صفونا مع الدهر» عن «دار الأهلية» في عمان.

الملفت أيضاً أن هناك وعياً نسوياً عميقاً في شعرها ونقدها. كانت تكتب عن المرأة كثيراً شعراً ونقداً، تقول في إحدى قصائدها عن المرأة: «المرأة هي/ سين/ سين المجذوبة إلى السماء السابعة؟ / العائمة بين النجوم؟ / الموزعة أبداً بين الولد والوالد؟»

وفي كتابها المهم «الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث»، كتبت عن تجربة الكثير من الشعراء والشاعرات ومنهم نازك الملائكة التي كتبت عنها بدقة وموضوعية وأرخت لدورها الإبداعي والنقدي الكبير وعن قصائدها المهمة وعن الإهمال النقدي لها، وأعطتها مكانتها الرائدة في تطور الشعر العربي الحديث، وقد اعتبرتها اللولب الأول للثورة الشعرية لقصيدة النثر بمشاركة الشاعر بدر شاكر السيّاب. وكانت قد أشارت إلى أنّ الملائكة قد أخطأت حين تجاهلت ما قدمه قبلها علي أحمد باكير الحضرمي وفؤاد الخشن، لكن هي التي نقدتها ورسختها.

وفي موسوعتها عن الشعر الحديث الصادرة بالإنكليزية، تكتب في المقدمة عن أسباب اختيارها وتقديمها للشعر العربي الحديث، فتشرح أن اهتمامها الأول انصب على التطور الداخلي للفن الشعري. تطوّر حددت معالمه بالدرجة الأولى عناصر من طبيعة الشعر نفسه. وتتحدث في مقدمتها عن ارتباط الكاتب الفلسطيني بالسياسة وخصوصية هذا الأدب وأهميته بالنسبة إلى الأدب العربي عامة. وتشير إلى أنّ هناك ظاهرة ثابتة وجديرة بالملاحظة أن أصحاب المواهب من الفلسطينيين عاشوا ودرسوا خارج فلسطين واتصلوا بالحياة العربية المزدهرة آنذاك.

وفي دراسة أخرى للناقدة مهمة بعنوان «البطل في الأدب العربي المعاصر»، تطرح ذلك السؤال المهم: «لماذا نتحدث عن الأدب العربي عامة ولا نكتفي بالتخصيص؟ فنتحدث عن الأدب المحلي في كل دولة عربية؟ وتضيف: «بالنسبة إلى الأدب، يمكننا القول بأنّ الأدب العربي الطليعي تعبير عام عن رؤيا الإنسان المعاصر في العالم العربي وهو موحد في الاتجاهات التي يعكسها». رحلت الشاعرة والناقدة الفلسطينية العربية وهي تحمل معها كل انشغالاتها وهمومها الشعرية والفكرية والنقدية التي تحمل رؤيا عالم عربي وإنساني حضاري. كانت تحلم بمشروع ثقافي نقدي شامل وموحد وواسع، برؤى نقدية جريئة، يعطي أهمية لذلك الهامش، كما قالت في قصيدة لها: «ليعلم شعبي أن في أعماق دبيجوره ألوف الشموس/ ستهتك ستر الظلام العبوس/ وتفتق سداً منبع الحواجز من سوره/ ليدفق عمر الضياء العظيم على الجانبين».

فلذة روح بلاد الشام

شاكر لعيبي *

في لحظة اعتراف ثقافي ذاتيّ قبل بضع سنوات، كنت أحاول معرفة مَنْ أثّر بتكويني شابّاً ومن كان من «أساتذتي» الصرحاء، والمخفيّين، وأيّ الكتّاب والشعراء والروائيين كوّن ذائقتي في نهاية المطاف. بعض الأسماء، كتبت عنها علناً، عرفاناً بالجميل، وبعضها لم أفعل بغياب المناسبة. اليوم أجد المناسبة: كانت سلمى الخضراء الجيوسي من الأساتذة الذين كونوا جيلاً كنتُ أترعرع في كنفه؛ فمن ترجمتها قرأت كتاب أرشيبلد ماكليش «الشعر والتجربة»، وقرأت ترجمتها لجزأين من «رباعيّة الإسكندرية» للورنس داريل و«جوستين» و«بالتازار»، وقرأت ترجمتها لـ «إنجازات الشعر الأميركي في نصف قرن» المنشور عام 1960 قبل انقطاعها عن الترجمة إلى العربية. لست من جيل الجيوسي المحفورة في ذاكرتي عبر هذه الترجمات وغيرها، وعبر سجالات عديدة، خاصة السجال الذي دار حول التجديد في الشعر العربي في الصحافة الثقافية العربية في ما بعد، ولم ألتق بها (إلا على الورق) إلا عام 2010 في ندوة أدب الرحلة في الجزائر، لكأني كنت أعرف دمائثها منذ زمن طويل، وإني التقيت بثقافة عميقة مثل ثقافتها منذ حين... لأعترف لها في ذلك العام في الجزائر أنها كانت من الأشخاص الذين ساهموا مداوَرَة، عبر الترجمات التي قرأتها لها، في تكويني الجمالي والثقافي والشعريّ. لم ترفض مثل بعض مجايليها قصيدة النثر، غير أنها رفضت بشدة أن يكون ما توصّل إليه شعراء مجلة «شعر» الحداثيين هو آخر التطورات الممكنة بالنسبة إلى فن الشعر. كنت أقرأ طالباً جامعياً في السبعينيات ما تيسّر لي من مقالاتها المنشورة في الصحافة العربية. وأظنها كانت منخرطة بعمق في جدال الحداثة والتجديد في الشعر العربي من دون موقف متعال أو تبسيطيّ. كانت ناقدة ذات ذائقة مخلوطة بالمعرفة، رغم أن المرء قد لا يتفق دوماً على خياراتها الصارمة بالإنكليزية التي قامت بتحريرها وكتابة مقدمتها بعنوان «موسوعة الشعر العربي الحديث» وهي تحتوي على قصائد لأكثر من تسعين شاعراً عربياً معاصراً. عملها «الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث» من ترجمة عبد الواحد لؤلؤة هو جهد ناقدة متمرسة وذوّاقة وعارفة بالدقائق. الجيوسي ابنة الثقافة العربية، وفلذة روح بلاد الشام، ونتاج تزاوج خبرات الشرق والغرب، عبر جهدها في الترجمة والتدريس الجامعيّ والبحث المعرفيّ الدؤوب. لم يوقفها الترحال ولا العمر عن شغف المتابعة وروح المغامرة.

* تشكيلي وشاعر ومؤلف عراقي

درست في جامعات كثيرة حول العالم من الخرطوم إلى الجزائر وقسنطينة والولايات المتحدة الأميركية. وفي ما بعد، تركت التدريس وبدأت مشروعها الهام في ترجمة الشعر العربي إلى الإنكليزية، وهي أول موسوعة للشعر الحديث وقد تطلبت سبع سنوات من العمل، وتضمنت حوالى 93 شاعراً عربياً، ثم أطلقت مشروع «بروتا»، الذي هدف إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة

> في مجموعتها الشعرية الأولى، يظهر ذلك الألم العميق بالهزيمة والشتات والقلق والبحث عن خلاص

لدى الغرب عن الحضارة العربية. وأصدرت ضمن المشروع قرابة أربعين مؤلفاً في الدراسة والترجمة. وفي عام 1985، كلفتها الأكاديمية السويدية بإعداد دراسة عن وضع الأدب العربي الراهن في تقييم عدد من الكتاب العرب المرشحين لجائزة «نوبل»، وقد كان لتلك الدراسة أثرها الكبير على حصول نجيب محفوظ على جائزة «نوبل». وفي عام 1995، عادت إلى عكا والقدس بعد غياب استمر لأكثر من خمسين عاماً.

لقد فهم الغرب سلمى الجيوسي، وقدّرها، وفتح لها جامعاته بينما سوء التقدير المحلي والرسمي، جعلها أيقونة عالمية وليست محلية، على الرغم من اهتمامها الكبير والنقدي في تقديم الإبداع العربي إلى العالم. تقول سلمى الجيوسي عن اهتمامها بالإبداع العربي: «إنّ قدمت شيئاً ذا قيمة، فالعالم سيقبله من دون تعقيد، ومنذ بدأت عملي على هذا المشروع لقيت إيجابيات في الغرب أكثر وأكبر مما لقيته في العالم الذي أحبّه وأخدمه بكل قوتي. الغربيون فهموا جوهر عملنا وأقبلت دور النشر العالمية على ترجمة أعمالنا، ثم إني عملت مع أرقى الشعراء الغربيين وأشركناهم في ترجماتنا الشعرية. العرب لم يدركوا أهمية التداخل الثقافي والحضاري المبني على أسس مدروسة، تفهم عقل المخاطبين وتتسلح بأدوات العمل الجاد المتقن، ومع أن بعض الدول العربية اهتمت بموضوع الترجمة، إلا أنها لا ترسم مخططاً واسعاً لإضاءة جوهر الحضارة العربية». في شعرها، يبرز صوت المرأة المتفرد

ناقدة «حرثت الأرض» بيديها العاريتين

كانت بياننا الشعري الأول

زكريا محمد

أول رواية قرأتها في حياتي، أو حاولت أن أقرأها في الحقيقة، كانت من ترجمة الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي. وهي رواية «جوستين»، الأولى من رباعية الإسكندرية للورنس داريل. كنت وقتها في نهاية المرحلة الإعدادية، أو بداية الثانوية، في المدرسة. لست أذكر الوقت بالضبط. وكان خالي قد ترك القرية نهائياً، وترك كيسين مملوءين بالمجلات والكتب في بيت أبيه الذي هُجر. وصار الكيسان غنيمتي في قرية لم تكن فيها كتب سوى كتب المدرسة، والقليل من الكتب الدينية عند بعض الناس. أما المجلات والصحف، فلم تكن تصل إليها.

قرأت كل ما في الكيسين عدا الكتب القليلة المكتوبة بالإنكليزية. ثم حملت «جوستين» معي إلى البيت محاولاً قراءتها. كنت أقرأ وأعيد، ثم أقرأ وأعيد. أقرأ عشر صفحات ولا أفهم. ثم أترك الرواية لأسبوع وأسبوعين، وأعود لأقرأ من البداية، لكنني لا أفهم. وهكذا مضت أشهر وأنا أحاول قراءة الرواية، لكن الفشل كان مصير محاولاتي. وبعد سنوات طويلة جداً، اشتريت نسخة من «جوستين»، لكنني لم أقرأها.

على أي حال، فبعد أكثر من ثلاثين عاماً، أي عملياً بعد جيل، تعرفت على سلمى الجيوسي عبر الرسائل، ثم عبر الإيميلات، ثم التقيتها بعد ذلك وجهاً لوجه في فلسطين.

وقد بدا لي أن الدكتورة سلمى لم تكن ناقدة تعيش في عالم الكتب، بل كانت ناقدة «تحرث الأرض» أولاً. وقبل كل شيء، وهنا كانت نقطة قوتها: الحراثة في الأرض بيديها العاريتين. ويمكن لي أن أقول إنها قد أمضت حياتها باحثةً عن النبتات الأدبية الجديدة وعلى الأخص في فلسطين. كانت تدرك أن هذه النبتات، الشعرية والأدبية عامة، يمكن أن تُداس بالأقدام وأن تتحطم ما لم يصل إليها أحد، ويكتشفها ويحميها. من أجل هذا، لم يذهب إليها ممثلو الكتابة الشابة، كما جرت العادة، بل كانت هي من تذهب إليهم. كانت تطاردهم في كل المدن، وتطارد منشوراتهم وقصائدهم في المنابر المعروفة، وغير المعروفة.

حصل هذا معي شخصياً ومع جيلي الذي بدأ يكتب بعد منتصف السبعينيات من القرن الماضي. وكان جزء كبير منّا قد دفعته الحياة إلى بيروت: زكريا محمد، غسان زقطان، وليد الخازندار، أمجد ناصر. وكان غيرنا يقيم في مدن أخرى.

وكانت الموضة وقتها موضة «الشعر المقاوم». أما نحن فكنا نحاول أن نكتب شعراً بسيطاً بلا سلاح ولا بطولة. نكتب عن النملة والزهرة وعن الظل والنور، وعن الحصان والحمار. ولم تكن الغالبية ترى في ما نكتبه شيئاً مهماً.

> بذلت كل ما أمكنها لتعريف العالم بماضينا الأدبي

هذا لا يعني، بالطبع، أننا لم نكن متورطين في السياسة مثل غيرنا. بلى كنا متورطين فيها بأشدّ ما يكون التورط. لكن نقطة وعينا المركزية أننا لم نكن نريد للسياسة أن تستغل الشعر، أو أن تبالغ في استغلاله. فقد أحسسنا أن السياسة استغلت الشعر حتى كادت أن تحطمه كما تتحطم مزهرية رقيقة. لهذا كنا نقفل الباب أمام السياسة حين نقعد كي نكتب شعراً.

ولم يكن هذا متوافقاً مع المزاج السائد وقتها. وأذكر أنّ أحد الشعراء المهمين الذين كانوا يمثلون المزاج العام، أخبرني أنه فكّر في دعوتي مرة لمهرجان شعر فلسطيني في بيروت، لكن حين قرأ قصائدي لم يجد فيها ما يدل على أنني فلسطيني، فاستنكف عن دعوتي. وكانت ملاحظة هذا الشاعر صائبة من وجهة ما. فليس هناك شيء فلسطيني مباشر في شعرنا، كما كانت الحال عند محمود درويش، أو أحمد دحبور، أو عزالدين المناصرة (وكلهم ليس موجوداً في عالمنا هذا اليوم). لكننا لم نكن لنتراجع أمام هذا المناخ العام. فقد كنا نريد أن نسبح في مياه أخرى. وكان الشعر سيدنا الأول، ثم يأتي بعد ذلك أي شيء. ثم جئنا إلى الثمانينيات.

وهنا ظهرت سلمى الخضراء الجيوسي. كانت تعمل على كتابها الكبير: «موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر». وكانت من أجله تطوف الأرض بحثاً عن الشعر الفلسطيني، وعن نبتاته الجديدة. وعثرت علينا. لم ترسل إلينا، هي من أرسلت إلينا. لم نرحل إليها، هي من رحلت إلينا. كان في يدها إبريق ماء، وكانت تطوف لتسقي النبتات الجديدة.

وقفت الدكتورة سلمى، وقالت: هذا شعر جديد. هنا تجري ثورة شعرية ما، لكن بلا بيانات شعرية ولا ضجيج كبير. تجري مثل نهر سري تحت الأرض. وبجرأة لا مثيل لها وضعت ما يكتبه هذا الجيل، ضعيف العضلات، في مواجهة الشعر السائد، وفي مواجهة ملوكه الأقوياء. لقد قررت بشكل ما أن تخوض حربنا، حرب النبتات الجديدة، وأن تكتب هي بياننا الأول، وكتبته حقاً. فقد كان كتابها المذكور «موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر»، بشكل ما، هو بياننا الشعري الأول. ولم يعجب كثيرين ما قالته سلمى الجيوسي عنا. لكنها هي من انتصرت في نهاية الأمر. فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى هيمن المزاج الشعري الجديد الذي أتينا به، وختم الشعر الفلسطيني بطابعه. وصار مزاج شعر الستينيات والسبعينيات مجرد ذكرى. بل وأرغم شعراءه الكبار، على أن يسيروا، بشكل ما، في الطريق الذي عبّدناه.

إذن، فقد كانت نقطة تفوّق الدكتورة سلمى الأولى أنها «حرّاثة» عظيمة. أما نقطة تفوقها الثانية، فكان ذوقها. كان ذوقها أرقى وأشد حساسية من الناس الذين كانوا أصغر منها بعشرين وثلاثين عاماً. ظل ذوقها الشعري حاداً ومتجدداً. كانت تكبر وكان ذوقها يظل شاباً. ثمة نقاد معروفون في العالم العربي كتبوا كتباً ضخمة عن الشعر، لكنهم لم يكونوا قادرين في الواقع على التفريق بين قصيدة جيدة وقصيدة رديئة. أما سلمى الجيوسي، فكانت تملك ذائقة شعرية لا مثيل لها. وهذه الذائقة هي التي انتصرت في نهاية الأمر.

بذا يمكن لي أن أقول إننا كجيل شعري من خلق سلمى الجيوسي. صحيح أننا كنا نزرع نبتات الشعر الجديدة قبل أن نعرفها، لكن من أزاح بيديه الشوك والعشب كي ترى هذه النبتات الشمس إنما هو سلمى الجيوسي.

كل الشعر الجيد الذي يكتب في فلسطين الآن هو، بشكل ما، ثمرة من ثمار ذوق سلمى الجيوسي، ثمرة جرأتها، وثمرة يديها اللتين جرحتهما الأشواك.

بالطبع، أنا أتحدث هنا عن تجربتي وزملائي الفلسطينيين. لكن جهد سلمى الجيوسي كان أوسع من ذلك. كانت تطوف الأرض العربية، وليس أرض فلسطين وحدها، من أجل نبتات الشعر الطرية الجديدة. فقد كانت تحارب من أجل أن تقنع العالم أنه يجب عليهم أن يسمعوا ما تقوله هذه الأمة، الأمة التي لم تتزعزع قناعة سلمى بوجودها أبداً. وكانت تجمع الأصوات من كل صوب، وتحملها، ثم تضرب على باب العالم بيديها وتقول لهم: اسمعوا، اسمعوا ما لدينا.

وقد أسمعت.

لكنها لم تكن تفعل هذا بخصوص العصر الحالي فقط، بل فعلته بخصوص الماضي. لهذا بذلت كل ما أمكنها لتعريف العالم بماضينا الأدبي. كانت مقتنعة أنه لم يكن هناك أدب ينافس الأدب العربي في عصر ازدهاره سوى الأدب الصيني. وكان أبو العلاء المعري عندها أعظم شاعر في الكون في عصره.

ملف

سلمى الخضراء الجيوسي ارتحلت إلى «النبع الحالم»

أدب يكتب من هناك

عبد الرحيم الشيخ *

في مطلع التسعينيات، كان الراحل عبد اللطيف البرغوثي، أستاذنا في الأدب واللغة، من القلائل من أبناء الحركة الوطنية في الأكاديميا الفلسطينية الذين لم يرق لهم انتقال «ملفّي» الثقافة والتعليم من منظمة التحرير الفلسطينية إلى السلطة الفلسطينية. كان رائياً تملؤه المرارة من تبعات غرق المنظمة في السلطة وما سيليه من واقع كابوسي، نشهد أحلك فصوله الآن، على مستوى الجماعة الوطنية. وقد أورثه ذلك عداوة كبار الأكاديميين الذين عادوا إلى الوطن للتقاعد بعدما أدّوا دوراً لا يستحق المديح في تسويق التسوية والمشاركة فيها. ولكنه لم يكفّ عن الإشادة بالمشاريع الفردية برسم المجموع، وبخاصة إن كانت خارج زبد هذا الغرق الشامل، لا خارجة منه.

كان مشروع سلمى الخضراء الجيوسي للترجمة من اللغة العربية «بروتا» (The Project of Translation from Arabic-PROTA) موضوع افتتان له ولنا. فهو مشروع طموح، تخلّق في كنف واحدة من أعرق الجامعات الأميركية (جامعة كولومبيا في نيويورك)، ونتج منه خلال عقد ونصف العقد من الزمن ما يشي بعدم الوقوع في مصيدة سياسات الترجمة في المراكز الاستعمارية لثقافة الهوامش المستعمَرة في الجنوب العالمي، وبخاصة الإفلات من مرض سدانة بوابة الترجمة التي يخيّل لمن يمتلك أحد مفاتيحها، عادةً، بأنه صار نمروداً ثقافياً «يحيي» من يختاره و«يميت» من يستثنيه.

انتقل افتتان أستاذنا لنا، وصرنا نتتبع أعمال سلمى، ونصدّق مفاتيحها، حتى لا نخلط الزوان بالحنطة. كنت سعيداً باقتناء ما أمكن من أعمالها، لكنني اعتبرت موسوعتها «أنطولوجيا الأدب الفلسطيني المعاصر» (1992) بالإنكليزية كنزاً فريداً. أما اكتشاف أنه صدر بالعربية بعنوان «موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر» (1997)، فقد كان في سياق خاص يغوي بالمقارنة ويتحرّز منها. لقد كان عام 1998، عام إحياء الذكرى الخمسين للنكبة فلسطينياً وعربياً، لكنه كان كذلك عام احتفال المستوطنين بالذكرى الخمسين لـ «استقلال» دولتهم. شهد ذلك العام فعاليات ثقافية وأكاديمية غير مسبوقة، ارتجل الفلسطينيون معظمها «ع المطرح» فيما القليل منها «قول من تحته عمل».

حينها، قرأت إعلاناً عن معرض كتاب عالمي ينظمه الصهاينة في «مباني الأمة» في القدس [الغربية] المحتلة. هناك أذهلني مشروع معرض فني حول الأدب العبري أقيم في المعرض، وكتبت عنه في أكثر من مناسبة. فعلى مدار عام كامل عمل حنان حيفر، أستاذ الأدب في الجامعة العبرية (الذي يعتبر بمقاييس البعض «متضامناً مع الفلسطينيين»)، على تحقيق حلم زئيف بيرجر (مدير المعرض) وتفسيره عبر تشكيل حداثي لهوية الأدب «الإسرائيلي» من خلال عملية إدماج قسرية لشتات النتاج الثقافي «الإسرائيلي» الأرابيسكي. وقد خرج حيفر ببانوراما نقدية متوترة حررتها حموتال تسير وصممها عدي شتيرن لدار «يديعوت أحرونوت» التي تمكنت من نشر كتاب بعنوان: «أدب يُكتب من هنا» في اليوم الثاني (21 حزيران 1999) من المعرض الذي صممه مولي بن ساسون وأوري ريشف وأنتجه أوري بلوتشر.

كتاب «أدب يكتب من هنا» هو بانوراما الأدب «الإسرائيلي» الذي لم يتفق النقاد، «الإسرائيليون» وغير «الإسرائيليين»، على تعريف له بعد. وقد عرض هذا الأدب في رحلة مدتها خمس وعشرون دقيقة بالفيديو والمشاهدة الحية في مسارات المعرض. «خمسون عاماً من الأدب الإسرائيلي» حاولت توليف ما لا يأتلف لتغيير هوية الأدب «الإسرائيلي» بحسب قاعدة الناقد أبراهام تريب «الدولة ككيان سياسي تمنح الهوية لكتّابها، غير إن الكتّاب «الإسرائيليين» هم الذين سيمنحون الدولة هويتها»... هذه المقولة التي أراد حيفر فحصها في مغامرته، إذ لن تكتمل شذرة «الأدب الإسرائيلي» إلا بتعريف جديد «لهوية الإسرائيليين». لقد أراد القول إنّ «الأدب الإسرائيلي» أدب أداتي ساهم في بناء الهوية القومية «الإسرائيلية»، أي إنه تواصل حداثي للفكرة الصهيونية، ناهيك بمواجهة موجة يهودية الدولة التي أودت اليوم، بعد أكثر من ربع قرن على صدور الكتاب، بـ «إسرائيلية» الأدب لصالح يهوديته.

في المعرض نفسه، شاركت دار نشر عربية وحيدة، «مكتبة الجليل» من شمال فلسطين المحتلة، عثرت لديها على الطبعة العربية من «موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر» الصادرة قبل عام واحد عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» في بيروت. كانت المفارقة فادحة بين «أدب هناك» الصهيوني الذي رصدت له كل هذه الإمكانات من الدولة ومؤسساتها ليصير «أدب هنا»، و«أدب هنا» الفلسطيني الذي لم يرصد له إلا جهد سلمى الخضراء الجيوسي ليصير «أدب هنا» القادم «من هناك». بالتأكيد سيكون من العبث المقارنة بين العملين على مستوى حضور أزمة الهوية أو غيابها، لكن المقارنة على مستوى الشكل واجبة: بين فكرة صهيونية حققت وجودها، ووجود فلسطيني عجز عن تحقيق فكرته (مع الاعتذار لإدوارد سعيد على ليّ مقولته الشهيرة في «القضية الفلسطينية»). خلال دراساتي العليا وما تلاها من انخراط في الحقل الثقافي الفلسطيني، حاولت تشكيل معرفة تمكّنني لا من فهم هذه المفارقة، بل من تفسير استمرارها. وخلال دراساتي العليا، كذلك، تخصصت في حسين البرغوثي، وتعرفت على أندريه ريمون وليوناردو شيرالي.

في فترة متأخرة، بعد عام 2006، كانت لي فرصة لقاء سلمى الخضراء الجيوسي شخصياً لمرات معدودة، في رام الله وعمان، عبر ابنتها الصديقة مي جيوسي وعبر «بيت الشعر الفلسطيني»، الذي صار أثراً بعد عين. كانت في صدد إصدار موسوعة جديدة للأدب الفلسطيني، وطلبت نصوصاً عديدة من «الجيل الجديد»، لكنها كانت مأخوذة بـ «الضوء الأزرق» لحسين البرغوثي (الذي كنت ترجمته للإنكليزية خلال دراستي للدكتوراه)، وألحّت على نشر الجزء الأول منه في الأنطولوجيا الجديدة، التي لا زلت أجهل مصيرها. لكن ما لفتني أكثر أنها ذكرت، ومن ضمن مشاريعها التي تبدو بلا نهاية، كتاباً حول «صقلية العربية»، وأنها تشعر بتأنيب ضمير لا ينقطع لتأخر هذا الكتاب عن الصدور بسبب عدم إيجادها مصادر حول الفصل المتعلّق بالموسيقى والغناء. وصلتها، في حينه، بالصديق الصقلي المولود في بروكلين، ليوناردو شيرالي، والذي ألف كتاباً هاماً في الموضوع، والذي أوصلها بزميل آخر متخصص في الموسيقى الصقلية. أذهلتني في حينه سعادتها البالغة بالكشف المعرفي الذي حظيت به مما تلقته من مواد غطت نواقص بحثها الفريد الذي أعتقد أنه صار موسوعة «المسلمون في صقلية» في عام 2015.

لا أحسن الكتابة عن الراحلين، ولكن ما يجدر قوله إن سلمى الخضراء الجيوسي لم تمكث هنا، في فلسطين، كثيراً، غير أنها كتبت الكثير، وترجمت الكثير، عن الأدب المكتوب من هناك عن هنا، ومن هنا عن هنا. ولا يزال مشروعها الفردي قائماً برسم المجموع. لا تحتاج سلمى الخضراء الجيوسي منا الآن شيئاً. لا تحتاج باسمها: لا جائزة تكرّس العدم، ولا شارعاً باتجاه واحد تفشل البلدية في تنظيم افتتاحه، ولا فعالية فرجوية يلوثها الرسميّون باللغو، ولا بيان استذكار تقتلنا بلاغته في ذكرى رحيلها، وبالتأكيد لا تحتاج مؤسسة أخرى لتكريس الفرجة في مقبرة ثقافتنا السعيدة. ولكننا نحتاج منها الكثير الذي وهبته قبل رحيلها... نحتاجه، ونحتاج وقتاً لقراءته، وإتمام ما لم ينجز منه بصمت، تماماً كما فعلت، ورحلت.

* شاعر وناقد من القدس

أن نترجم لتحلّ الطمأنينة

أليس يوسف *

«الإبداع لا يضلّ أبداً» (سلمى الخضراء الجيوسي)

في فتوّتي، اعتدت أن أسمع جدتي تقول: كل إنسان بلسان. كان وقتها لي لسان واحد فقط: لسان لغتي الضاد. فلم أفهم، لم أفهم القدرة العجيبة لهذا اللسان الناطق بأحرفه الثقيلة والغريبة أن يحمل عالماً كاملاً، إلى أن ملكت لساناً آخر. لسنوات عديدة، احتلت الألسنة حصة الأسد في قلبي، تسحب بي تارة تجاه التواصل اليومي، وطوراً تجاه الأدب. لم أكن أعي أنّي كنت في طريقي إلى الشعر. في الشعر، فهمت قلب اللغة الذي ندخل إليها من لسان حالها. وهناك التقيت بسلمى الخضراء الجيوسي. بين دفتَي كتاب تعرفت إليها: امرأة نحيلة، بنظارات مثلي وصوت رقيق وقلب عصفور قلق.

امرأة رأت ما وراء الألسن، ومشت بخطى ثابتة لتجسّر القلق.

علاقتي بسلمى الخضراء الجيوسي لم تكن يوماً شخصية. كنت أتابع أعمالها أولاً كقارئة وثم كباحثة وبعدها كمترجمة متمسكة بشعاع ضوء من منارتها التي تشع في عالم أغرقته الضوضاء. بدأت رحلتي مع «الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث»، أشهر أعمالها وأكثرها أثراً في المشهد الأدبي والثقافي العربي محلياً ودولياً. كنت أتساءل وأنا أقرأ ما الذي يدفع بسيدة لتكرّس حياتها لتنقض وتفكك وتترجم الأدب العربي؟ وجدت أجوبتي في ثنايا أعمالها: العصفور القلق ما زال ينبض حياً.

عندما أتأمل في سيرة حياتها، لا أخفي بأن أستحضر البيئة التي أفضت بكل هذا القلق إلى أن يطفو على السطح. السبعينيات والثمانينيات كانت سنوات تعج بالتغيرات السياسية والاجتماعية التي عصفت بالعالم العربي، خصوصاً فلسطين بلد سلمى الحبيب. ما بين انتفاضات وحروب أهلية وحركات تحاول أن تتحرّر، قوبلت الشعوب العربية، أينما حلّت، بتشويه قاتم للصورة العربية: ظلام وخوف ورائحة دخان نفط يحترق ومدن تُطحن تحت رحى الحرب. فماذا فعلت سلمى الخضراء القاطنة في أميركا آنذاك عندما داهمها هذا القلق؟ حملت الأداة الأكثر أثراً: عادت إلى الكلمة وبدأت مسيرة الترجمة.

أطلقت مشروع «بروتا» وهاجسها الأول أن تنقل الغنى العربي ثقافة وأدباً وهوية إلى العالم الغربي. مكّنها المشروع من أن تغزل بصنّارتها شبكة نجاة تضم مئات المترجمين والأكاديميين المهتمين بالأدب والثقافة العربية. عبر عملها الدؤوب بين اللسانين وعبر السنين، استطاعت أن تنجز مقالات وكتباً لا

> عجّت حقبتا السبعينيات والثمانينيات بالتغيرات السياسية والاجتماعية التي عصفت بفلسطين بلد سلمى الحبيب

تحصى ارتقت لتكون مرجعاً أساسياً لملايين الطلاب وباحثي الأدب في العالم. وعلى الرغم من أنّ «بروتا» عاش معها حتى داخل بيتها، إلا أنّه لم يكن المحطة الأخيرة. «بروتا» ترجم ولكنه لم يغيّر الصورة وحده، فألحقته بمشروع «رابطة الشرق والغرب» لتكسر صورة اليأس العربي وانعدام الهوية والتشرذم.

عندما أفكر في الإرث الذي تركته الجيوسي اليوم، لا يسعني إلا التوقّف مطوّلاً عند أداتها الأقوى: تسلّحت بنقل الكلمة والهوية كأنها تقول لنا قرّاء وباحثين «أن ننقل خشباً يبني جسراً خير من أن نردم الهوة بقش يتطاير». كأن هذا الجسر طمأنينة يعبر بنا من لغة إلى أخرى. هنا نجحت سلمى الخضراء في الجمع بين عالمين ولسانين: اعتمدت على الجمعي العام. كان القلق من انعدام الرؤية، فشملت بصيرتها الكل. ربما تكون الأنطولوجيات المختلفة التي عملت عليها أغنى ما نملك لأنها جمعت بحكمة نقطة ماء من كل بحر عربي، وهكذا تمكنت سلمى من أن تكون الأقرب في وقت نشر هذه الأعمال إلى القراء الأجانب وكان بعض من موسوعاتها: «الشعر العربي الحديث» (1987) و«موسوعة الشعر الفلسطيني المُعاصِر»، و«أدب الجزيرة العربية» (1988)، و«نصوص مسرحية عربية قصيرة» (2003). انتقت أن تجمع الوطن العربي كلّه لا أن تفرق. انتقت بمهارة عازف ناي أن تشمل كامل الأساليب الأدبية، فلم تغفل. هذه مهارة سلمى: ألا ترى الطريق فتشقه بطريقتها، فلم تقف المسيرة على بضعة أعمال انتقائية، بل وصلت إلى أكثر من 60 كتاباً!

أكان هذا القلق عظيماً يا سلمى؟ يبدو أنه كان كافياً، فأتت الكلمات لتواسي. الترجمة فعل طمأنينة، لماذا؟ لأنّ الترجمة كاشفة. إن كانت الكتابة تعرية للروح، فالترجمة تحمل مصباحاً وتضيء على هذه الروح. بعتب وتعب وجلد، قضت سلمى السنوات لتُعيد تأكيد ذاتها: الإبداع حقاً لا يضلّ! ما يميز تجربتها أنّها لم تقف عاجزة وراء الكلمة، تختبئ بين الألسنة ووراء السطور. كانت نشطة وناشطة في شتى السبل واستطاعت ترك أثر لن يزول أبداً. اتخذت من القلق ضيفاً عبرت فيه بشغف لا ينفد إلى بحر الطمأنينة، منحت لنفسها مهمة لتكملها الأجيال القادمة: أبدعنا ونبدع عربياً، فليرَ العالم ويسمعنا. خسارتنا جليلة، تبكي أسوار عكا ابنتها وتزفّها مقدسات القدس علماً وتكتبها القلوب من المحيط إلى الخليج صرحاً، لكن سلمى لن تذهب بعيداً، فجلي أنّ كرمها وعطاءها يبقيها لنا حيةً بين سطور الكتب، مطمئنين إلى أنّها باقية، كما أسهمت هي أيضاً في إبقاء كل ما كتبته ونقدته وترجمته حياً ما دمنا نقرأ.

* شاعرة ومترجمة فلسطينية

نعيد هنا نشر المقالة التي كتبها الأديب الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني (1936 ـ 1972) عن ديوان الجيوسي الاول «العودة من النبع الحالم» ونشرها في مجلة «الآداب» عام 1960 تحت عنوان «النبع الحالم... وحزن الهزيمة!».

النبع الحالم... وحزن الهزيمة!

غسان كنفاني

في تقاليد إسبارطة أن يقدم الناس طفلاً يذبحه قائد إسبارطي خارج المدينة كي يكون هذا الطفل فداءً بطولياً لكل شعبه. وفي سنة ما حمل الإسبرطي القائد طفلاً إلى خارج المدينة من أجل أن يقدم دمه شراباً لكبرياء الآلهة التي خذلها إنسانها، فصارت تحاربه، وحينما التقى الطفل فوق العشب واستل سيفه المسطح التقت عيناه بعيني الطفل، فإذا به يحدق إليه ويبتسم، وهكذا جمد السيف في يد الإسبارطي الخشن، وامتصته الابتسامة الصافية، وبدأت تنمو حاسة حزن عميق إلى جانب حاسة التضحية البطولية التي آمن بها طوال سنوات من حياة إسبارطة الأم.. في لحظة واحدة وُجد الإنسان الحقيقي من التقاء هاتين الحاستين: الإيمان بالتضحية، والحزن من أجلها.

«العودة من النبع الحالم» هو هذه القصة بالذات... ليس طفرة حماس سطحية، ولكنه فهم إنساني، عميق وحزين وشجاع. لذلك فإن إعطاء المقاييس العادية للديوان خطأ محض. وعملية دراسية يجب أن تتم كما تمت عملية تكوينه: انفتاح غير محدود على الإنسان في قوته وضعفه، في إيمانه وجحوده، وفي كل لحظة يتعرض لها إحساس هذا الإنسان الذي لا يستطيع أن يكون فوق المنبر كل لحظات حياته، ولا بد له من أن يعيش مع الناس.. ويفهم كيف يعيشون. وهكذا فإن اختياري لهذا الخط في دراسة ديوان «العودة من النبع الحالم» -الخط الذي تعبّر عنه القصة الإسبارطيّة تعبيراً كافياً- ليس صدفة... وأعتقد أن تجاهل المستوى السلبي في نفسية الإنسان -إذا اعتبرنا الحزن سلبياً- ليس سوى عملية تشويه للمستوى الإيجابي في نفسيته، بل ربما لتكوينه البشري الصحيح. فالمطلوب من الشاعر اليوم ألا يكون متحمّساً بقدر ما يكون صادقاً.

الإحاطة بديوان «العودة من النبع الحالم» للشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي إحاطة كاملة تكاد تكون أمراً متعذراً، فهناك كثير من القضايا تطرح نفسها في البحث كقضايا أساسية، فمن حيث الأداء تطرح قضية الشعر الحديث نفسها أولاً، وللشاعرة سلمى رأيها في الموضوع والذي عبرت عنه في كثير من مقالاتها النقدية والذي لا مجال لبحثه هنا، ولكن الإشارة إلى أن اللحن الشعري في قصيدتَي «المدينة والفجر» و«الشهيد المهجور» يعتبر أحسن برهان على كفاءة الشعر الحديث الموسيقية وقدرته التعبيرية اللامحدودة، إشارة ضرورية. كما أن إدخال النفس الشعبي خلال سياق القصيدة، والواضح في «منذرون» و«أذرع الكتان» يحتاج إلى مقال خاص يبرز استيعاب الشاعرة لقضية الشعر ولقضايا الناس معاً، ففي هاتين القصيدتين بصورة خاصة، تستعير الشاعرة كلمات الأسى من الشارع نفسه، وهي لا تقدم في المرتبة حزناً ملوناً بالبلاغة، ولكن حزناً نما خلال زمن طويل في عظام الناس، وأصبحت له تقاليده وكلماته الخاصة.

إن البدء في الحديث عن «العودة من النبع الحالم» من هذه الزوايا سوف يجرنا بعيداً عما قصدنا إليه، ورغم ذلك فنحن لن نستطيع أن نمر بالحركة الرائعة -أو المريعة- في قصيدة «تحت جناح حرب ذرية» من دون توقف، فالشاعرة تنقل اللحظة بحيوية عنيفة وقاسية، وهي تضع القارئ أمام دوامة الفناء المفاجئ وجهاً لوجه، وهذا العمل يقدم للشعر الحديث مؤهّلاً جديداً.

ولو كان الخط الرئيسي لشعر سلمى شيئاً غير الذي أشرنا إليه (الرغبة في التضحية والحزن من أجلها) لو لم يكن هذا، لكان القلق الذي تعيشه الشاعرة مع كل طليعة القرن، ولكان البحث عن خلاص من هذا القلق، وطمأنينة لهذا الخوف... إلا أن هذا القلق -رغم كل شيء- يشكل جانباً رئيسياً من جوانب الخلفية التي تصدر عنها شاعرية سلمى، وهو موجود بصورة واضحة في كثير من قصائد الديوان.

أما الشيء الجديد بالإشارة إليه حول هذا الموقف القلق، فهو قدرة الشاعرة على إلباسه للجميع ببراعة... بل، والبحث به من وجهات نظر مختلفة وأحياناً من وجهات نظر متناقضة -لو أجزنا لأنفسنا التعبير- وهذا يبرز في قصيدتي «أنا والراهب» و«الصامدون»، أما في «بلا جذور»، فالجميع قلق. ولكلّ قلقه الخاص وطريقته في التعبير عنه.

لسوف نعترف مرة أخرى بأن الحديث عن «العودة من النبع الحالم» من هذه الزوايا سوف يجرنا بعيداً عما قصدنا إليه، ولقد قصدنا إلى دراسة الديوان من خلال الهزيمة التي تحسّها صاحبته بوضوح وعنف. وقد يكون النظر إلى الديوان من هذه الزاوية فقط عملاً ضيقاً لا مبرر له. بل وقد يكون ظلماً للديوان. ولكن إذا كان العمل الفني هو، وقبل كل شيء، تأثراً ذاتياً أو لا، فإن عمل الناقد غير المحترف هو فهم الديوان من ناحية تأثر ذاتي، أيضاً... بل إنّ خلع نفسه عن هذا التأثر من الصعوبة بمكان كبير، ولقد وصلت القضية بعد هذا كله إلى ما يلي: أن تكون معظم قصائد الديوان عن فلسطين وعن الهزيمة.. وأن يكون الناقد -غير المحترف- من فلسطين ومن الهزيمة أيضاً. فهل من سبيل إلى اختيار وسيلة أخرى لدراسة ديوان «العودة من النبع الحالم»؟

يتلخص الديوان في الجملتين اللتين وقعتا في آخر القصة الإسبارطية: الإيمان بضرورة التضحية.. والحزن من أجلها.. والإنسان الجديد بهاتين الحاستين مما هو النمط الذي تمثله الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي: هو الإنسان الذي فقد أرضه وقدره معاً، والذي جرته المركبة إلى خارجها وصاحت في وجهه: أنت لاجئ! هو الإنسان الذي يدرك تماماً كم هو في حاجة للتضحية الكبيرة، ولكنه أيضاً الإنسان الذي تعلم كيف يحزن بعمق وبإنسانية، لذلك فهو حينما يقدم هذه التضحية، لا يفعل خلال نشوة لحظة حماس سطحية، لحظة حماس تصل إلى الكف لتجعله يصفق لا إلى القلب لتجعله يحس.. بل إنّه يقدم فداءه الكبير وهو يعرف تماماً أنه سوف يحزن من أجله، وأن أعماقه الإنسانية سوف تبكي بنفس القدر الذي ستفرح به للنصر.

وهكذا فإن معنى التضحية يصل إلى مستوى يختلف تماماً عما عرفناه، يصل إلى مستوى الاقتناع الوجداني العميق الجديد بإنسان يحمل عبء قضية الجيل:

أنا أدري أنهم ماتوا «ليحيا الوطن»
وطن القتلى، وحقل الدم هذا الوطن
أنا أدري أنها «الحرية الحمراء» هذا الثمن
الرائع، المغموس بالآهات، هذا الثمن
أنا أدري! إنما الحزن بأعماق فؤادي ليس يدري
أنا أبكي كل عين فقدت ضوء الحياة
كل روح سال من بين الشفاه! (1)

إن المعاني المتداولة التي تطفو فوق المفهوم الحقيقي للتضحية تقف عارية هنا، بكل ما في طاقتها أن تتعرى، لتكشف عن أعماقها الخاصة، حينما ننشد كل صباح «نموت ليحيا الوطن» نمر مرور العابر بالثمن العظيم الذي تستلزمه هذه الحياة، ولكن «حياة الوطن» هنا تكشف عن نفسها بقسوة وعظمة، وتأخذ مكانها الملائم في الجرح الإنساني العميق، إنها تترجم الفهم الحقيقي للتضحية، التي تستلزم الاقتناع الحزين، ولكن الضروري:

هكذا ماتوا.. ويمضي غيرهم نحو المصير
قدر محتومة رؤياه يا جيل العطاء!
رعشة محمومة تجتاح قلبي وتثير
دمعة الحزن بعيني.. ومض الكبرياء.. (2)

إلا أن قصة الشعر عند الشاعرة سلمى ليست هنا فحسب، بل قد تكون القصائد التي يحملها «العودة من النبع الحالم» مجرد جزء من القصة كلها. القصة التي بدأت منذ انزرع أول مسمار في جسد القضية، والتي لم تنتبه إلى هذا اليوم. والحقيقة أنّ تصنيف شعر سلمى بحسب الزمن ليس عملاً سهلاً وفي نفس الوقت ليس عملاً هاماً، بل إنه لا يقل صعوبة عن تقسيم القضية ذاتها إلى مراحل. إلا أن الشيء البارز في الموضوع أن الشاعرة كانت شاهدة في القضية، وكفنانة نستطيع أن نقول إنها كانت تجربتها الأساسية، ولو حاولنا الآن أن نضع الأسس الثلاثة لملامح الشعر عندها، فنحن لا نقصد إلى أي تقسيم زمني أو موضوعي، ولكننا نقصد إلى إبراز هذه الملامح التي ربما كانت موجودة في القصيدة الواحدة وجنباً إلى جنب. فالشاعرة:

1- عاشت الحياة العادية مع الناس العاديين في فلسطين قبل النكبة.

2- وعاشت سنوات الضمير المعذب والشعور بالذنب والفترة التي اصطلح المناضلون على تسميتها بفترة العويل.

3- وعاشت في لحظات الانبعاث الجديدة التي وزعت في نفسيتها الشعور بالمسؤولية والرسالة.

وتكوّن -من كل هذا- الموقف الذي نستطيع أن ندرس شعر سلمى كله تحت خطه العريض، والذي نسميه: تقديم التضحية مع معرفة مقدار الحزن الحقيقي الجدير بها. ولسوف يبقى هذا الخط واضحاً في كل القصائد بصورة لا تدعو إلى التحيّر.

وهكذا فإن نظرية الناقد إدموند ولسون موجودة هنا -ولكن بصورة عجيبة- نظرية القوس والجرح كما أراد أن يسميها، وإذا كان القوس (أي القدرة على العطاء) سبّب النكبة التي مرّت بها الشاعرة، فمن الغريب أن يكون الجرح (أي الضعف) هو نفس القوس هذا، فالشاعرة نتاج للنكبة، أو -فلنقلها كما تريدها هي- نتاج للهزيمة. وهذه هي نقطة ضعفها الأساسية، عقدتها النفسية الخاصة (الجرح في رأي نظرية ولسون) كونها تعيش بين جدران هذه الهزيمة بالجدارة التي تليق بحساسية فنان مسؤول. وأدّى هذا الجرح بالذات إلى أن يكون عطاؤها (القوس في نظرية ولسون) مجرّد نتاج لشعورها بالذنب، بالجرح، وبالمسؤولية.

تبدو القضية متشابكة -وهي كذلك فعلاً، وهذا هو السبب في كون «العطاء والضعف» موجودَين في معظم قصائد سلمى، وجنباً إلى جنب:

نحن من جيل اليتامى. نحن من جيل القلوب الضائعة.
أمنا قد كوّنتنا من جحيم الأمس، من لوعته.
من تباريح قرون هاجعة.
فإذا ما ولدتنا فوق جفن الفجر، في روعته،
وتفتحنا وقد أعشى مآقينا السنا...
نحن لم نغتر.. لم نهتف هي الدنيا لنا..
حلوة، غراء، نشوى، رائعة..
بل عرفنا حظنا..
ورمينا العمر في ميعته
بين فكي الحياة الجائعة (3)

-1-

الواقع أن كل شيء كان يبدو عادياً في فلسطين، وكانت الشاعرة تعيش على شفا الهزيمة دون أن تحس ذلك جليّاً -كالجميع- وهذا هو السبب في أن اللطمة أنتجت عويلاً لا تنظيماً، مجرد تصور كيف كانت تجري الحياة بهدوء وكيف هي الآن بالنسبة إلى اللاجئ يلقي الظلال على الصورة ويجعلها تبدو كئيبة باكية:

... وفريق يزرع الخيرات فيها، وفريق
يقطف الخيرات والأزهار منها والأغاني
كان بعض منهم يحتال في جني ألمها..
... بقوى الإنسان.. كانوا بشراً كالآخرين
بشراً في ضعفهم، في عزمهم، في مبتغاهم
في أفانين الأماني.. وتباريح الحنين.. (4)

إن الأبيات هذه تلتقي القضية التي ألقاها جورج أورول بسؤاله في قصته «1984»: «إننا نعرف كيف ولكننا لا نعرف لماذا؟» تلقي هذه القضية بصورة أشد عنفاً وإنسانية: «كانوا بشراً كالآخرين..» وهذا شيء يدفع للأسى، ويدفع للسؤال نفسه: كانوا للآخرين... إذن لماذا يتفردون بالمأساة، كل شيء كان يجري بطمأنينة، والشاعرة كانت ترى ذلك كل يوم، ولا تستطيع أن تنساه:

كم تواددنا صغاراً.. وتسابقنا مع النجم القريب...
وشردنا في الذرى الخضراء في المرج الخصيب
(لم ندرك كم كان خصيب)
وجزعنا لانفلات الشمس خلف المنحى
قبل أن نفرغ من أقوالنا
بضميري عبق من ورق التين الذي ظللنا..
كنت دنيا عنفوان... إلخ (5)

رنة الأسى لا تغادر الذكرى، والأسى هذا لا يفتش عن كلمة من صفيح يقرع بها الأسماع لتصفّق الأكف... بل يجري فوق الذكريات الصغيرة والأشياء التي لا تنسى بكل بساطة وعادية. إنه لا يحتاج إلى عملية التفتيش والافتعال، لأنه موجود أصلاً بكل أصالته ووضوحه وصدقه.

-2-

وتحدث الهزيمة فجأة.. والفلسطينيون النازحون عبر الحدود يستبدلون بأسمائهم كلمة «لاجئين»، يبدو الحدث سريعاً وصاعقاً، وتعبر عنه الشاعرة بصورة سريعة وصاعقة كلما تعرضت له:

وسألت البر والبحر عليهم..
وشحوب الفجر والليل الحزين..
فهدتني مطفأة العين إليهم..
وبقايا العوسج المحمول من ديدانهم
يوم خافوا الموت في أوطانهم
كي يعيشوا.. لاجئين.. (6)

القضية هي قضية ضمير متأزم، شعور بالذنب، بالجرح، لذلك فالقسوة لا حد لها:

.. نحن هذا كله..
كلمة مبحوحة الجرس، نشاز جمعتنا:
«لاجئين»(7)

أتكون الصدفة وحدها هي التي تجر سلمى إلى تركيز فكرة اللجوء والتشرد في كلمات قليلة كلما تعرضت للحظات الهزيمة والضياع؟ أم تراها غير قادرة على تفصيل هذه اللحظات التي تحسها هي -فعلاً- بصورة سريعة وصاعقة:

آه ماذا؟ عازف عني شرود النظرات
فارغ الصبر؟ ترى لست ابن عمي يا حسيب؟
قال لي دون اكتراث، وتوارى: «بل غريب» (8)

ولكن الموقف ليس فقط موقف مفاجأة وخذلان، بل شعور قاس، بالقلق والتمزق والخسارة.. وفي أحيان كثيرة، شعور بالذنب، وكل هذا تعبر عنه الشاعرة بقسوة كأنما هي تدين الجيل كله:

.. فالشفاه الصفر لا تلثم أطفالاً عراة..
ولدوا دون جذور، أو غد، من شهوة لا حب فيها.. (9)

اليأس لا حد له.. هكذا كانت ملامح فترة العويل التي أعقبت التشرد مباشرة. كون الإنسان بلا جذور تشده إلى الأرض وبلا طموح يشده إلى المستقبل يجعله ضائعاً عن كل شيء.. حتى عن مثله العليا:

وعلا صوت المنادي للصلاة..
قلب جدي غافل.. لن يسمعه

-3-

ولكن الإنسان الذي يشعر بالذنب يشعر أيضاً بالمسؤولية.. وهكذا تصل الشاعرة إلى الإيمان بدورها دون أن تستطيع التجرد من لحظات الألم الأسود التي مرّت بشعبها. وهي حينما ترتفع بنفسها إلى مستوى الرائد إنما تفعل ذلك وهي على يقين بأن التضحية التي سوف تقدمها جديرة بالحزن، وضرورية، كما هو ضروري، لذلك فإن التضحية هذه تصل إلى مستوى إنساني رفيع وعميق ويحتوي على كل عناصر عافيته وأصالته:

فاذروا الورود البيض يا أبناءنا.. فوق الثرى...
فالأرض لا تحيا إذا لم يشرق الموت الأبيّ على الجباه.. (10)

وتبدو الرحلة الطويلة في الشوك ذات جدوى.

الجروح لم تلتئم... ولكن الطريق يطلب المزيد:
سوف نعطي العيش أن أرهقنا صدراً رحيب
ونغني لبلاياه.. ونرعاه بإحساس وعين..
ونعري قلبنا السمح الخصيب..
لمدى تغرز في الأضلاع.. في العمر الرتيب
ليس هذا العيش عنا بالغريب..
قد صحونا.. لن يشع الحلم فينا مرتين!! (11)

إن الروح الأساسية لديوان «العودة من النبع الحالم» تتميز بهذه المسؤولية الواعية.. لذلك تصف الشاعرة الموت في قصيدة الشهيد المهجور بأنه «السارق المعطر» نفهم مرادها تماماً.. ونعرف كم تحس بالمسؤولية إحساساً واعياً.. يعتمد فهم عنصر الحزن في التضحية وأهميتها كي تصل هذه التضحية إلى مفهومها الإنساني الحقيقي... ذلك لأن:

«الوجود لم يغلنا.. وحزننا حزن معافى وقرير..
وألف نجم شع في قرارة الضمير
يقول لي غداً: حزنت، إنما لك العزاء
زرع أبيك أنت بالهوى سقيته وسوف يأكلون...» (12)

نُشرت في مجلة «الآداب»، العدد رقم 6، الأول من حزيران (يونيو) 1960

(1) مرثية الشهداء
(2) ملاثية الشهداء
(3) العودة من النبع الحالم
(4) مرثية الشهداء
(5) بلا جذور
(6، 7، 8، 9): بلا جذور
(10) الورد والعقيق
(11) العودة من النبع الحالم
(12) وررورن

تاريخ

أنطوان ضومط: المسيحيون العرب في ظلّ دول الخلافة

محمد نور الدين

هي أقرب إلى «مطالعة قضائية» بالتواريخ والوثائق والأسماء لمسار امتدّ بعد وفاة الرسول محمد إلى نهاية العهد المملوكي، توثّق لكل الاضطهاد الذي تعرّض له المسيحيون العرب على يد السلطة السياسية، التي حكمتهم باسم الدين وباسم المصالح فذهبوا ضحيتها ولا يزالون. في زمن استعار العصبيات الدينية والمذهبية والعرقية، التي تجاوزت خطوطها الحمر، في السنوات العشرين الأخيرة في الفضاء العربي والإسلامي، يأتي المؤرخ اللبناني أنطوان ضومط، أستاذ التاريخ العربي والإسلامي في العصور الوسطى وصاحب المؤلّفات العديدة، ليحاول في كتابه الجديد «المسيحيون المشرقيون ودول الخلافة الإسلامية: جدلية السلطة والدين» (دار سائر المشرق) أن يرسم حدوداً بين النص والتطبيق في علاقة السلطة الإسلامية مع المسيحيين في المشرق العربي عبر العصور، وصولاً إلى نهاية العهد المملوكي. يفرز المؤلف بين فسطاط النص القرآني والنموذج النبوي وبين فساطيط ما كان لاحقاً في الدول الإسلامية التي تلت.

وتبدو ملحّة مثل هذه الدراسات والأبحاث في ظل «الاجتهادات» غير الملائمة بالنص القرآني والمصادر الأساسية التي تغرف من القراءة العمياء للتاريخ الإسلامي وبعض نماذجه المشوّهة التي بدت على فصام وتضاد مع التجربة القرآنية وتطبيقاتها في عهد الرسول العربي. ومثل هذا التبيان هو نتيجة «جهود حثيثة» ـ كما يقول ضومط ـ لدراسة «الفاعيل الدينية في ممارسات السلطة السياسية وتأثيرهما على أوضاع المسيحيين في الدول الإسلامية» وكيف استُبدل مصطلح «أهل الكتاب» مثلاً، بـ «أهل الذمة» الذي لم يرد ذكره أبداً في القرآن.

يبدو الفصل الأول من الكتاب، المؤلف من سبعة فصول، كما لو أنّه خلاصة العلاقة بين السلطة الإسلامية والمسيحيين على مدى تاريخهم ودولهم. يعود الباحث إلى المصدر الأول للتطبيق النبوي حول المجتمع وهو «عهد الصحيفة» الذي أطلقه النبي في المدينة المنورة وعرف لاحقاً بدستور المدينة. لعل أهم ما في بنوده الـ 47 أنه اعتمد مصطلح «الأمة» بدلاً من النظام القبلي ولم يحصر تعريف المؤمن بالمسلم، وإنما اشتمل كل من «يؤمن بالله واليوم الآخر» من مهاجرين وأنصار ويهود يثرب. وعهد الصحيفة هو أول تنظيم سياسي اجتماعي ديني مكتوب، نصّ على أنّ كل المؤمنين أمة واحدة ـ «بمعنى مولى بعض» أي إنّه أرسى المساواة التامة بينهم.

لكن نكث اليهود بعهودهم جعلهم خارج المجتمع الجديد الذي تحول إلى «إسلامي صرف»، مع أنّ النبي ـ بعد انفكاك هذا العهد مع اليهود ـ لم يحاول أن يستبدلهم بالمسيحيين كجزء من الأمة، فقد عمل على منع التعدي على المسيحيين بكتب أكد فيها حمايتهم والبقاء على هويتهم الدينية، إذ «لا إكراه في الدين». ومن أبرز هذه الكتب عهد الرسول لمسيحيي نجران، وعهده إلى كل المسيحيين الذّين كتبهما بيده علي بن أبي طالب وفيهما حماية كاملة لهم ولدينهم.

يتوقف ضومط عند التحول في الموقف من المسيحيين عندما أصبح المسلمون لاحقاً قوةً كبيرةً، فتحولت السلطة إلى تيوقراطية لا تعتد بالمسيحيين، فكانت بداية مسار ضد المسيحيين يناقض العهود التي منحها الرسول لهم. ومن أبرز الأمثلة على ذلك تعامل المسلمين السلبي مع المسيحيين في عهد الفتوحات في زمني أبي بكر وعمر بن الخطاب. ورأى الباحث أن السلطة في العهد العباسي، فشلت في إرساء العدالة بين مكونات المجتمع عندما تحولت إلى دينية في المظهر وزمنية في التطبيق العملي، فكان المسيحيون

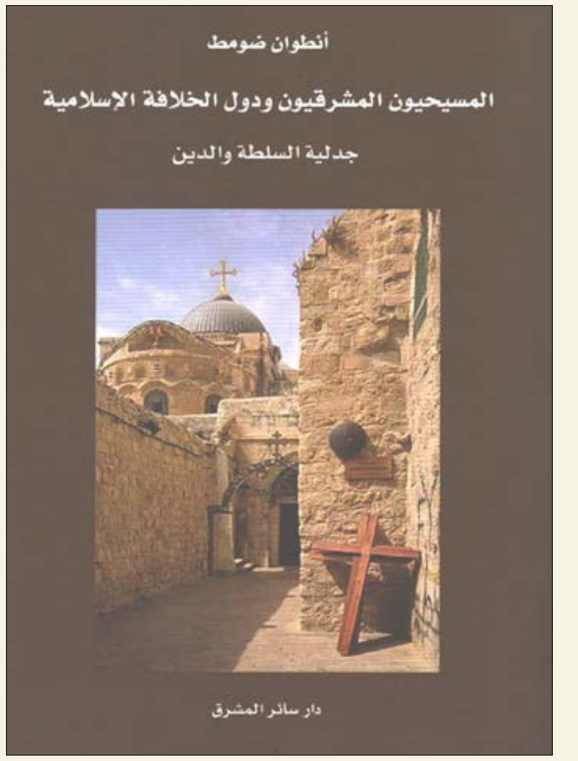

مصطلح «أهل الذمة» لم يرد أبداً في القرآن الذي يطلق على المسيحيين واليهود مصطلح «أهل الكتاب»

ومطولاً مع فقهاء وعلماء مسلمين وعلمائهم أمثال ابن تيمية، وتقي الدين السبكي، وضياء الدين ابن الأخوة وابن قيم الجوزية، في العهد المملوكي حول تعارض ممارساتهم واضطهاداتهم للمسيحيين مع أحكام القرآن والسيرة النبوية والعهود التي قطعت للمسيحيين. يقول ضومط في مكان آخر: «تحول العداء لغير المسلمين إلى ثقافة اجتماعية شبه عامة»، ويرى «أن الإذعان عدو الإيمان» والتطرّف لا ينتج سوى التحجّر الفكري.

في الفصل الخامس، يواصل الباحث الكلام على العهد المملوكي وكيف انتشرت فيه عهود الذمة الأكثر سوءاً ضد المسيحيين. يعرض بالتفصيل عدداً كبيراً من الوقائع الخاصة بهذا الشأن وكلها «تمت من دون مبرر شرعي». لكنّ كل ذلك لم يلغ في بعض الحالات توزير مسيحيين أو توليهم وظائف عليا جمعوا من ورائها أموالاً طائلة حسدهم المسلمون عليها وعملوا على الانتقام منهم وفتح الباب أمام مصادرة السلطات المملوكية لأموال وممتلكات الكثير منهم.

وفي الفصل السادس، نعثر على أغرب تمييز من قبل المماليك بين المسيحيين المشرقيين والمسيحيين من التجار الأوروبيين، إذ «حلّل» المماليك لهؤلاء التجار ما حرّموه على المسيحيين في بلادهم، فأعفي تجّار البندقية مثلاً من الجزية وسمح لهم بالإقامة في الفنادق وتشييد كنيسة ومنح السلطان المملوكي قنصل البندقية راتباً شهرياً. واعتبر ضومط أن هذه الاستثناءات تؤكد على تجاوز حدود الشرع، كما تفهمه الدولة تجاه المسيحيين، كرمى للتجار الأجانب.

وفي الفصل السابع والأخير، تطرّق الباحث إلى العلاقات الاجتماعية الشعبية المباشرة بين المسلمين والمسيحيين التي استطاع فيها المسيحيون التحلل من رقابة السلطة وممارسة أنماط الحياة، ولا سيما الأعياد الدينية مثل الميلاد والفصح، ومهنها بحرية تحت ما يمكن تسميته حالياً «نقابات المهن الحرة».

يخلص المؤرخ أنطوان ضومط إلى أن التطبيق الكيفي لعهد الذمة كان له أثر كبير في الخطاب المسيحي الذي لم يكن قادراً على التعبير عن نفسه. والسبب أنّ السلطة السياسية الإسلامية تفلّتت من الأحكام الدينية المنظمة للعلاقات مع المسيحيين. وقال إنّ ممارسات الحكام أساءت إلى الإسلام أكثر من دفاعهم عنه، وتفوق الزمني على الديني وانتهى «حلم المجتمع الأفضل». وقال إنّ العصور الوسطى احتوت على القليل من الإيمان والكثير من الظلام. وهذه الثابتة استمرت برأي المؤرخ في العالم العربي المعاصر وما «داعش» إلا تعبير صارخ عنها. وفي النهاية فإن الحاكم المستبد الملتحف بالدين لا هوية دينية ولا سياسية له. كذلك رجل الدين المتشدد الذي يتماهى مع القديم رُعباً من الحداثة.

الكتاب، باختصار، ليس فقط محاولة لتبيان علاقة السلطة بالمسيحيين، بل قراءة عقلانية في مسار التاريخ الإسلامي نفسه والصراعات بين مراكز القوى والعصبيات المذهبية والحركات الاجتماعية. وأهمية الكتاب أيضاً في دقته التوثيقية وفي العبر التي يفترض أن تستخلص من كل هذه العلاقة بين السلطة والمسيحيين، كما الأقليات الدينية والمذهبية الأخرى، من أجل محاولة بناء مجتمع يتساوى فيه الجميع بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية أو العرقية أو حتى السياسية. لقد فرش المؤرخ أنطوان ضومط في كتابه الجاد مائدةً دسمةً لما كانت عليه العلاقة بين السلطة و«الآخر» المسيحي. يبقى أن يتقدم «أولي الأمر» لوضع المدماك الصلب في بناء عمارة الحداثة مستفيدين من كل التاريخ ودروسه ومن تجارب الآخرين في العالم من دون خوف على ضياع الهوية والدين.

بعض المناصب التقنية مثل الترجمة والإدارة إسقاطاً لنظرية المساواة بين أبناء المجتمع. بطبيعة الحال، هذا لا يلغي مواقف مشرفة لبعض العلماء مثل كتاب الإمام الأوزاعي للخليفة أبي جعفر المنصور الذي يدين المعاملة السيئة للمسيحيين بعد ثورة المنيطرة «المسيحية» في عام 759 ميلادية. ويقول الباحث إن من تربّع على عرش اضطهاد المسيحيين كان الخليفة المتوكل (846-861) الذي كان اضطهاده لهم مخيفاً. ويعطي الباحث علامة جيدة للفاطميين الذين تميز عهدهم إجمالاً بمنح الطمأنينة وحرية العبادة للمسيحيين، كما تم توزير بعضهم في عهد العزيز بالله وغيره. وعلى الرغم من التعامل التمييزي أحياناً ضد المسيحيين، فإنّ العهد الفاطمي ـ قياساً إلى العهود الإسلامية الأخرى ـ يعتبر «من أسلس العهود في التعامل مع المسيحيين» وفق ضومط.

يفرد الباحث الفصل الرابع للحديث عن وضع المسيحيين في ظل الدولة المملوكية. يقول إن المسيحيين حينها عانوا تهميشاً كاملاً وازدادت درجة العداء الإسلامي لهم. يرى الباحث إن من ضمن الأسباب هو الدور الذي لعبه الصليبيون في إزكاء الشعور الديني الذي تلطوا خلفه لتبرير غزواتهم الصليبية والمجازر التي ارتكبوها بحق المسلمين ومنها مجزرة القدس عام 1099. كما أن العديد من المسيحيين قدموا المساعدات للصليبيين ولا سيما في المناطق الساحلية. كذلك، قدموا المساعدات للمغول الذي جاؤوا، معتقدين أنّهم سيكونون خليفة الدول الإسلامية في المشرق العربي.

يخوض الباحث سجالاً حاداً وجاداً ضحية لمحاولات السلطة ترغيبهم أو ترهيبهم لدخول الإسلام. ولم يختلف الأمر في العهدين الفاطمي والمملوكي، ولا سيما الأخير لجهة تغلّب الزمني على الديني وتهميش الديني وإفراغه من أي مضمون قد يكون محرّكاً لتطور المجتمع والسياسات، بل أيضاً إرهاق المماليك للمسلمين أنفسهم بالانتهاكات، فكيف بغير المسلمين؟

في الفصل الثاني، يعرض الباحث بداية المسيحية في المشرق العربي بدءاً من العام سبعين للميلاد، ومن ثم انتشارها في العراق وبلاد الشام مع المناذرة والغساسنة، وتحول الحيرة في جنوب العراق إلى مركز ديني مسيحي مهمّ أطل على الجزيرة العربية منذ بداية القرن الخامس. وفي اليمن كان انتشار المسيحية مع القرن الثالث بعدما عانى مسيحيو فلسطين من الاضطهاد الروماني، كما استُجلب مسيحيّو الحبشة للعمل كرقيق في اليمن والجزيرة، حتى يثرب (المدينة المنورة) نفسها كان فيها مع بدايات الإسلام، أسقف وثلاث كنائس على ما يروي المؤرخون. كذلك، انتشرت المسيحية في مصر مع بدايات المسيحية رغم الاضطهاد الروماني، بل كان عدد المسيحيين في القرن الحادي عشر فيها يفوق عدد المسلمين. ويكتب ضومط أنّ الفاتحين المسلمين عاملوا المسيحيين في مصر بالحسنى، خلا بعض الفترات في المرحلة العباسية والفاطمية. لكنه يلاحظ أنه كلما انتصر المسلمون في معركة، كانوا يتشددون ضد المسيحيين استشعاراً بفائض القوة المستجد عندهم. كذلك، يلاحظ أن المسيحيين عموماً عاشوا في المدن الإسلامية في أحياء خاصة بهم تخوفاً من تعديات السكان. وكان التعرض الأكبر للاضطهاد في لبنان على يد السلطات المملوكية. كذلك تتبع الباحث نشوء الكنائس في المشرق العربي.

وفي الفصل الثالث، يتوقف المؤرخ أنطوان ضومط عند بداية عهد الذمة لدى المسيحيين. يرى أنّ ما عاناه المسيحيون بعد العهد النبوي، تحول إلى تشريعات رسمية تتعارض مع ما جاء به الرسول من عهود للمسيحيين ولا سيما في نجران. ويقول الباحث إن مصطلح «أهل الذمة» لم يرد أبداً في القرآن الذي يطلق على المسيحيين واليهود مصطلح «أهل الكتاب». أما مصطلح الذمة، فيعني في المعاجم العربية المعاهد المسيحي على روحه وسلامته مقابل دفع الجزية، فيما لا يوجد أي فرق آخر بينه وبين المسلم في كل شيء آخر سواء في السلوك أو المظاهر الاجتماعية. لكنّ المسيحيين تعرضوا لتطبيق ما عرف بالشروط العمرية (العمرين ابن الخطاب وابن عبد العزيز) وكلها تفرض عدداً كبيراً من المحظورات على المسيحيين ومنها على سبيل المثال حظر بناء الكنائس ومنع إظهار الصلبان علناً وارتداء لباس خاص بالذمي، وأن يفسحوا في الطريق أمام المسلم. ويفصّل الباحث مطولاً في ما يطلق عليه «اضطهاد وإذلال» عمر بن الخطاب للمسيحيين في المجالات والسلوكيات كافة التي تتنافى مع ما عُرف عنه من صلاح وعدل بين الناس. يقول الباحث إنه مع أنّ هذه التعليمات كانت تتغير مع تعاقب العصور (عهد معاوية وابنه يزيد استثنائي على حسن التعامل مع المسيحيين)، فإنها كانت تضعف اللحمة الاجتماعية. كما كان عزل الموظفين المسيحيين القلائل في

رواية

«كواليتي لاند»: ديستوبيا ممتعة عن الذكاء الاصطناعيّ

سلوى دبوق

أهلاً بك في «كواليتي لاند»، أكثر البلدان تميزاً؛ مرحباً بك في «كواليتي سيتي» التي تتحقق فيها رغباتك التي تُمكّنك من الحصول على الوظيفة التي تناسب قدراتك، وعلى الشريك الذي يتلاءم مع تطلّعاتك العاطفية. باختصار مرحباً بك في الجنّة!

«كواليتي لاند» (2017) رواية من تأليف الكاتب الألماني مارك ـ أوفه كلينغ (صدرت نسختها العربية أخيراً عن «دار خان» ـ ترجمة هدى الخطيب) وتنتمي إلى أدب الديستوبيا. أدبٌ يتميّز عادة برسم صورة قاتمة ومقلقة عن مجتمعات ذات حكم شمولي، لكنّ مارك ـ أوفه كلينغ يثبت لنا هذه المرة أنّ الديستوبيا يمكن أن تكون كوميديّة أيضاً. حقّقت الرواية نجاحاً لافتاً، إذ فاق عدد قرائها المليون حول العالم. أما موضوعها، فيتمحور حول التطور الرقميّ الهائل والتقدم الكبير في تحليل ومعالجة البيانات اللذين يتسبّبان في تغييرات اجتماعية وسياسيّة كبيرة في أحد البلدان الغربيّة.

تجري الأحداث في «كواليتي لاند» أي «أرض الجودة» التي كانت تُملك اسماً آخر في السابق (في إشارة إلى ألمانيا). لكنّ بعد فشل النظام على الصعيدين السياسي والاقتصادي، يقرر الخبراء تغيير اسم البلاد ومنحها صورةً جديدةً جذابةً، فبلدٌ يعجّ بأمثال هيغل وفاغنر وشوبنهاور لن يثير اهتمام المستثمرين في مجال التقنيّات العالية. حتى السكان أعيدت تسميتهم، وأصبح كل صبيّ يحمل مهنة والده كلقب، وكل فتاة تُكنّى بعمل والدتها. أما دروس التاريخ المُملّة والمثيرة لذكريات اليمة، فجرى إلغاؤها واستبدالها بأخرى عن المستقبل. كذلك أصبح هتلر وإيفا براون شخصيتين في مسرحية غنائية ناجحة، وموسوليني تحول إلى عاشق متيّم في إحدى الروايات الغرامية.

تبدأ القصة مع «بيتر العاطل عن العمل» الذي يعيش في «كواليتي لاند» أي «أفضل العوالم الممكنة» كما يقول الفيلسوف المتفائل ليبينيز، ولكنه لا يشعر بالسعادة، ويعتقد أنّ شيئاً يسير على غير ما يُرام: إذا كان النظام مثالياً، فلماذا هناك روبوتات قتالية مصابة باضطراب ما بعد الصدمة؟ لماذا الآلات أصبحت أكثر إنسانية والبشر أكثر ميكانيكية؟ في الحقيقة، تخضع حياة الأفراد في «كواليتي لاند» للإشراف الكامل من قبل الخوارزميات التي تعرف كل شيء عن المواطن، فتُقدّم له المنتجات التي تناسبه وفقاً للملف الشخصي من دون أن يطلبها وتُسلّمها له بواسطة طائرة «درون». كما تُحدد له الطعام الذي يجب أن يتناوله والشريك الذي يجب أن يواعده، وتستطيع أن تجعله يرى الحياة باللون الورديّ بفضل العدسات اللاصقة المتصلة بالشبكة. باختصار، إنها أرض الأحلام للجميع باستثناء عديمي الفائدة الذين يُعتبر بيتر واحداً منهم.

لماذا بيتر عديم الفائدة؟ لأنّ «كواليتي لاند» هي أرض النوعية حيث يتم تصنيف البشر إلى مستويات مختلفة وفقاً لرساميل متنوعة يملكونها مثل: الحالة الصحية، والمهنة، والدخل، والأصدقاء، ونوعية الجينات، والتفكير النقدي، وروح الدُعابة... كلما اقترب مستوى الشخص من 100، تتم معاملته بشكل أفضل. أما إذا تدنّى مستواه عن 10، فهو عديم الفائدة. بيتر مُصنّف في المستوى التاسع، أي إنّه مهمش لا يتم احتسابه، يحاول بطلنا التعايش مع الواقع، لكنّ الكيل سيطفح بين يديه عندما يتلقّى منتجاً لا يرغب به، عبارة عن دلفين زهري هزاز، فيقرر إعادته إلى الشركة. لكنّ المتجر الإلكتروني The shop يرفض تماماً عملية الاسترجاع، فخيار الرفض غير موجود أساساً في شروط البيع، وشعار المتجر الشهير هو: «نحن نعرف ماذا تريد». هنا يقرر بيتر أن يقود ثورة دونكيشوتية فيها شيء من قوة هوميرية ضد النظام القائم.

نتابع أيضاً تطور شخصية الروبوت «جون» الذي تُرشّحه الجبهة التقدميّة لرئاسة «كواليتي لاند» تحت شعار «الآلات لا تخطئ» ضد «كونراد الطياخ» المرشح الشّعبوي اليميني، لكنّ بعض الأعمال الإرهابية التي تقوم بها حفنة من المتمردين الغاضبين من سيطرة الآلات تعكّر صفو الانتخابات. الغريب أنّ الروبوتات في هذا المجتمع أصبح لديها وعي خاص بها، ووصلت إلى درجة من الغرور والثقة تجعلها ترفض الأعمال الغبيّة التي لا تروق لها وتتخلى عنها للبشر، لتتفرغ هي شخصياً للأمور التي تتطلب درجات عليا من التفكير والكفاءة. كما أنّ بعض الروبوتات أصبحوا أدباء مشهورين بعد تحليلهم لأذواق القراء ونسبة مبيعات الكتب. هكذا يدفع مارك ـ أوفه كلينغ لعبة العبث إلى أقصاها، على أمل أن يثور الناس ضد قيامة هذا المجتمع العجيب.

لا شك في أنّ الرواية تمتلك ميزات عديدة جعلتها تُحقق هذا النّجاح العالمي، فـ«كواليتي لاند» تُقدّم هجاءً ساخراً للمجتمعات الرأسمالية الحديثة والمعتمدة تماماً على التكنولوجيا، وهي تلفت بأسلوب طريف للغاية إلى النتائج الوخيمة للأتمتة وسيطرة الذكاء الاصطناعي على كل جوانب الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. تنتقد النزعة الفردانية والنظام الاقتصادي القائم على الاستهلاك المفرط اللذين يميزان مجتمعات ما بعد الحداثة، فالقانون في «كواليتي لاند» يحظر إصلاح الأشياء المستعملة وإعادة تدويرها ويدعو السكان إلى المزيد والمزيد من الاستهلاك الشره. تتميز الرواية أيضاً بالأصالة، وقد تمكن كلينغ من خلق عالم مستقبلي متماسك روائياً وقابل للتصديق، ونجح في ابتكار شخصيات مُتّسقة في سلوكها وأفعالها. كذلك اختار لغة ومفردات متوافقة مع الحقبة المستقبليّة التي تجري فيها الأحداث، فمنح الرواية بذلك وهم الحقيقة وجعل العالم الخيالي يبدو معقولاً.

في المقابل، هناك بعض النقاط التي أضعفت قليلاً الرواية، كبطء الأحداث في البداية، حيث يقصّ الروائي تفاصيل عديدة عن كيفية تأسيس «كواليتي لاند»، وأساليب العيش في هذه الدولة الغربية. النهاية متوقّعة نوعاً ما بالنسبة إلى القراء المعتادين على روايات الخيال العلمي. يمكننا القول أيضاً إنّ التبسيط المبالغ فيه لقضايا هامّة وتناولها بخفة يمكن أن يزعج البعض الذي يبحث عن نقد أعمق وحلول مبتكرة لمواجهة سيطرة الذكاء الاصطناعي.

الخلاصة أنّ الكاتب الذي يتحلى بروح فكاهيّة عالية، أضاء في «كواليتي لاند» على مسائل حيويّة عن التكنولوجيا وسيطرتها على حياتنا، لكنه عكس لنا أيضاً القلق الذي يعتريه إزاء مستقبل الإنسانية والعالم الذي يتحول بشكل سريع بسبب التطور غير المسبوق في عالم الذكاء الاصطناعي، والذي بدأت إرهاصاته مع ظهور «شات جي بي تي». «كواليتي لاند» هي دعوة إذاً لأخذ الحذر من الكسل والإدمان على التكنولوجيا، وللحفاظ على القيم الإنسانية والحريّة الفرديّة، لأننا نطمح للعيش في أرض العدالة لا أرض النوعيّة.

هجاء ساخر للمجتمعات الرأسمالية الحديثة المعتمدة تماماً على التكنولوجيا

توثيق

منذر حلوم ملاحقاً «فرسان الحرية» في الثقافة الروسية

منى سكرية

عندما غضب الغرب من الرئيس بوتين في الحرب الأوكرانية، سارعت مؤسساته الأكاديمية والجامعية ودور الموسيقى والأوبرا إلى إلغاء وشطب مواد التدريس الخاصة بالثقافة الروسية، هذا الأدب الذي بلغ أوْجَهُ في الحقبة الستالينيّة. وكان هؤلاء الأدباء وهم أحياء قد نالوا من غضب ستالين ما أوصلهم إلى جحيم المعتقلات والموت. وفي الحالتين، وقعت الحرية ضحية غضب «الأنظمة اللبرالية» و«الأنظمة الديكتاتورية»، ما يستدعي السؤال/ المعضلة في تناول الأدب لقضيّة الحرية.

يعيش أستاذ مادة البيولوجيا (في جامعة اللاذقية سابقاً) منذر بدر حلوم في موسكو، وقد أتقن لغتها وتعمّق في الأدب الروسي وترجمته، فصدر له أخيراً كتاب «فرسان الحرية في الثقافة الروسية» (مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة)، منتقياً نصوصاً لأدباء روس كبار تصارعوا مع ستالين في حقبته دفاعاً عن حرية التعبير والإنسان، ورفضاً لمعتقلات الموت التي اشتهرت في عهده، لكنه ضرغهُم بأنواع متنوعة، كما يتيح لنا حلوم الإطلاع عليه طي صفحات كتابه، نصوص سلسة بجمالية اللغة والأسلوب والتوصيف، وفلسفية/ وجودية في السياق. يحضر وتحضر يوميات ومصائر الجبهة البولبتارية السوفياتية تدمّر الدولة، ويسأل: كيف ذلك؟ ويحسم بأنها لا تماثل الناس التي أدّت ذات يوم إلى انهيار بلاد يبكونها إلى اليوم، ويستطرد متسائلاً: «من وما الذي حشرهم في كهف اللامبالاة وجعلهم من أجل الحرية، ما جعل كتابه بفصوله الخمسة وعناوينها الفرعية المثيرة، مرجعاً لمن ينوي المزيد من الاطلاع على الأدب الروسي في تلك الحقبة.

يقول حلوم إنّ الرواية الروسية مثّلت انعكاساً رمزياً للبحث الفلسفي والأوروبي. فالتأملات الفلسفية في أعمال تولستوي ودستويفسكي عن الشخصية وأهداف حياتها، تفوق ما قامت به الأعمال الفلسفية الروسية. حاول «الكتّاب الكبار في إبداعاتهم، استجلاء سر الإنسان وكيف يكون حين يجد نفسه عند مفترق الطرق بين الخير والشر في المفهوم السائد عنهما، والحياة والموت، والحرية والضرورة، ومن ثم الإرادة والمسؤولية». وإذ يرى أنّ «كثيراً من الأيديولوجيات السياسية لا تُقرّ بالغنى الذي يكمن في الاختلاف»، فإنه يؤكد على أهمية الشخصية في كسر السكون، وفي الخلق والإبداع، وصناعة التاريخ والحضارات، الأمر الذي لم يره ستالين «حين زجّ كل المختلفين والمتميزين المتمايزين الذين يمكن لهؤلاء أن يروا ما لم تراه الأيديولوجيا» يذكر أن أعمق من عالج هذه الظاهرة في الأدب الروسي كان إيفان غانتشاروف في روايته «أبلوموف» (صدرت عن وزارة الثقافة السورية بترجمة يوسف سلمان عام 1985)، وتفسير الأبلوموفية أنها سوء الإقطاعية أو الأرستقراطية، ما جعل حلوم يعلق ساخراً بقوله أن الأبلوموفية البرولبتارية السوفياتية تدمّر الدولة، ويسأل: كيف أدّت ذات يوم إلى انهيار بلاد يبكونها إلى اليوم، ويستطرد متسائلاً: «من وما الذي حشرهم في كهف اللامبالاة وجعلهم من الكتّاب بلا شخصية وبلا حرية؟»، محدّداً «أن الحالات الأشد فتكاً تكون اللامبالاة بمنزلة اعتكاف عن ممارسة الحياة، نحو حياة تمارس نفسها، فتكون أشبه بحياة كائن في بيات أو سكون».

حمل الفصل الثاني من الكتاب عنوان «فرسان الحرية»، وفيه يبدأ مع الكاتب الروسي الشهير ميخائيل بولغاكوف (1891-1940) صاحب مقولة «إذا فكّر أحد كائنات بلا شخصية وبلا حرية»، محدّداً «أن الحالات الأشد فتكاً تكون اللامبالاة بمنزلة اعتكاف عن ممارسة الحياة، نحو حياة تمارس نفسها، فتكون أشبه بحياة كائن في بيات أو سكون».

بولغاكوف كان قد بعث رسالة إلى ستالين توحي أنه بلغ من القهر درجةً لم يعد لديه معها ما يفقده، ما جعله ياساً، جسوراً. يتوقف الباحث أيضاً عند رواية «دكتور جيفاكو» للشاعر والروائي بوريس باسترناك، الذي تعرّض لحملات تخوينيّة بالرغم من أن الرواية صدرت في الخارج. مع ذلك تمّ تقييمها تخوينياً، ما اضطره للاعتذار عن عدم قبول جائزة «نوبل للآداب» عام 1958 (لم تنشر الرواية في روسيا إلا في عام 1988). كما يعرض لحالتَي شاعرتَي المقاومة والصمود أولغا بيرغوليتس (شاعرة حصار لينينغراد) وآنا أخماتوفا، فكلتاهما اعتقل زوجها وأعدم في المعتقل، وكلتاهما عانت الملاحقة والاضطهاد، وكلتاهما كبست جرحها النازف قصائد تنشد بالدعوة إلى الصمود والمقاومة. أولغا كانت زوجة الشاعر بوريس كورنيلوف (1907-1931) الذي اعتُقل وأعدم في المعتقل. أما أوسيب مندلشتام (1891-1938) فكان أول شاعر كتب قصيدة ضد ستالين، واصفاً شاربيه بالصرصوريان، فكان مصيره القتل، كالعديد ممن قتلوا في عامَي 1937 و1938 من نخبة الأدباء الروس. أما سولجنتسين الذي استأنس بالصراصير والفئران في مخبئه «لأنها أمّنته بالدفء» كما ذكر في روايته «دار ماتريونا»، فيذكّرنا بالأسير الفلسطيني حسن سلامة في عزلته الانفرادي في سجون إسرائيل وما ذكره عن استئناسه بالفئران والصراصير في كتابه «خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ» (مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات).

تمثلّ النصوص التي اختارها وترجمها حلوم لهؤلاء الذين وصفهم بفرسان الحرية «بما يرهق الروح» في وصفه لقراءة أدب السجون والمعتقلات، وأعطت صورة مرعبة عن الحقبة الستالينية، التي حاول الرئيس خروتشوف لدى تسلمه السلطة التخفيف من آثارها في مواجهته مع تلك الحقبة، «لكنه لم يحقّق النجاح الذي ابتغاه».

سولجنتسين استأنس بالصراصير والفئران في مخبئه «لأنها أمّنته بالدفء»

أوراق

أين نشأت الأبجدية، وكيف؟

زكريا محمد *

نشأت الكتابة في المركزين الكتابيّين الأساسيين في المنطقة: مصر وبابل. مصر بكتابتها الهيروغليفية التصويرية المعقّدة، وبابل بكتابتها المسمارية المقطعية، التي لا تقل كثيراً عنها في تعقيدها. لكن تطور الكتابة إلى الأبجدية، لم يحدث في هذين المركزين، بل خارجهما. وهذا مجمع عليه، وإن كان هناك من يبحث عن تأثير مصري ما على هذا الاختراع ومن يبحث عن تأثير بابلي. ويمكن لي أن أستند في تفسير ذلك إلى نظرية سمير أمين بشأن أنماط الإنتاج وأطبقها على الكتابة الأبجدية. فعنده تكسر الأنماط الإنتاجية السائدة من نقاط ضعفها، أي من أطرافها لا من مركزها. فالمركز يكون في العادة محافظاً بشدة ومتماسكاً، بحيث يكون من غير الممكن كسره. وهذا ما حصل مع ظهور الرأسمالية. فقد ظهرت في أوروبا، لا في آسيا. أي لم تنشأ في المراكز الحضارية كالصين والعالم الإسلامي، بل في أطرافها، وعلى حدودها، أي أوروبا. فنمط الإنتاج الإقطاعي الأوروبي كان نمطاً فرعياً ثانوياً، إذا ما قورن بالمراكز التي نتحدث عنها، أي مراكز نمط الإنتاج الآسيوي كما سماها ماركس.

مثل هذا حصل مع الكتابة الأبجدية، فهي لم تنهض في مصر وبابل، وفي الصين، بل في النقطة الحدودية الطرفية بينهما. أي أنه جرى كسر النماذج الكتابية المهيبة من خارج المركزين. وتشير الدلائل كلها إلى أن هذه النقطة تقع بين جنوب فلسطين، بما يشمل سيناء، وشمال الجزيرة العربية. مع أن هناك من اعتقد أن العملية تمت في سواحل فينيقيا. لهذه فقد عثرنا على أول نقوش لهذه الأبجدية في سيناء، وفي موقع سرابيط الخادم على وجه الخصوص، وبتاريخ يقدر بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر بعد الميلاد.

واعتقادي أنه لم يكن بإمكان فينيقيا، ولا كنعان كلها، أي الشام جميعه، أن تكون المكان الذي تنهض فيه الأبجدية. فالشام كان دوماً مضغوطاً بين مصر وبابل والحثيّين. ولم يكن بإمكان طراز جديد ومستقل من الكتابة أن ينشأ ويعيش فيه. فالمراكز لن تدعه يفعل ذلك.

وأعطيك مثالاً، ففي القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كان على مدن بلاد الشام في فلسطين وسوريا أن تتعامل مع الدولة المصرية، وأن تراسل فرعونها أخناتون. وقد عثرنا على المئات من هذه الرسائل في أرشيف تل العمارنة، عاصمة أخناتون.

الرسالة EA 252م من لبايو حاكم نابلس إلى الفرعون اخناتون

ولم تكتب المدن الشامية رسائلها تلك بالكتابة الأبجدية التي كانت موجودة منذ قرون عدة. ذلك أن الدولة المصرية لم تكن لتعترف بهذه الكتابة «البربرية». فالكتابة تتم فقط بالأنماط «المحترمة المتحضّرة». فاضطرت هذه المدن إلى استخدام الأكادية العراقية في التواصل مع مصر. ذلك أن الكتابة المصرية بتعقيداتها المخيفة صالحة للتواصل بالطبع. فتدريب الكتّاب عليها يحتاج إلى وقت طويل جداً، وإلى تكاليف باهظة لا تحتملها مدن بلاد الشام. فوق ذلك، فإن طبقة الكتاب المصرية المرتبطة بالكهانة لم تكن تقبل أن تتحول الكتابة إلى أمر شائع يتقنه الجميع. فهذا يهددها ويهدد مصالحها. لذا لم تكتب المدن رسائلها بالأبجدية. لذا أرغم كنعانيو بلاد الشام على التواصل مع الحكام المصريين بالأكادية المسمارية. كانت نظاماً كتابياً أخف وطأة من الهيروغليفية، لكنها لم تكن «بربرية».

وكان هذا يعني أن على كل من يريد أن يكون كاتباً في هذه المنطقة أن يتعلم الكتابة الأكادية. لم تكن تفيده الكتابة الأبجدية التي كانت قد نشأت قبل قرون في شيء حتى لو تعلمها. لذا ظل وجود الأبجدية هامشياً، وغير رسمي. ولم تصبح الأبجدية وسيلة بلاد الشام الكتابية إلا في الفترة بين القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد. أي بعدما ضعف النفوذ المصري، ولم يعد هناك ما يمنع تطور هذه الكتابة. ولعل رحلة «ون آمون» أحد كهنة الكرنك الذي مرّ فيها من السواحل الفلسطينية إلى جبيل، تبيّن إلى حد كانت مكانة مصر قد تهاوت في ذلك الوقت. ولعل حملة شيشانق على فلسطين وعلى أجزاء من شمال الجزيرة العربية في ما يبدو كانت محاولة لترميم الوضع ليس إلا. على كل حال، ففي ذلك كان قد مضى على ظهور الأبجدية ما يقرب من ألف عام. وهذا يعني أنها منعت من الانتصار قرابة ألف عام.

المقطعية السامية

لكن يجب القول هنا إنّ الكتابة الأبجدية التي نتحدث عنها نهضت على أساس كتابة سامية مقطعية وجدت قبلها. هذه الكتابة تمثلها نقوش «جبيل- بيبلوس» التي عثر دوناد الفرنسي عليها في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين. وهي نقوش لم تحل رموزها نهائياً بعد.

Fig. 29. — Grande tablette (A).

لكن فرضيتي أنها تنتمي إلى عالم الجزيرة العربية، وتمثل لغة عربية قديمة. وقد قدمت براهين على ذلك من قبل. هذه الكتابة كانت تصويرية مثل الهيروغليفية، لكنها مقطعية مثل الأكادية. أي أنها كانت في منطقة وسطى، آخذة ما هو مناسب لها من الطرفين. من هذه المقطعية انبثقت الأبجدية. فقد جرى في لحظة محددة إلغاء المقطع من أجل تسهيل الكتابة. فالكتابة المقطعية تقوم على كتابة الصوت مع حركته. يعني: إذا أردت أن تضع رمزاً لحرف العين، فسوف تحتاج إلى أربع علامات لا إلى علامة واحدة: علامة للعين مع الفتحة، وثانية للعين مع الكسرة، وثالثة للعين مع الضمة، ورابعة للعين مع السكون. وهذا ما يجعل الرموز كثيرة يحتاج الواحد إلى فترة زمنية طويلة لتعلمها. وفي اللحظة التي نتحدث عنها، قرر أحدهم إلغاء الحركات، أي كتابة الصامت فقط. بذا صار للعين رمز واحد، علامة واحدة، وليس أربع علامات. وهو ما أدى إلى تسهيل الكتابة ودمقرطتها، وانتهى عملياً لاحقاً إلى موت الكتابة المسمارية المقطعية، هذا إذا تجاهلنا أن الكتابة المصرية كانت معزولة في مصر وحدها.

وقد حصلت العملية التي نتحدث عنها في الأطراف، أي بين الجزيرة العربية وجنوب فلسطين، أي عملياً على أيدي عرب الجزيرة العربية وكنعانيي جنوب فلسطين أساساً.

* شاعر وباحث فلسطيني

Samedi 29 Avril 2023 no62
السبت 29 نيسان 2023 العدد 62

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

نقابة المحامين
أهل مكة أدرى بشعابها

[4-2]

(قصر العدل في بيروت - هيثم الموسوي)

مرسوم الحدّ الأدنى للأجور يخلق فجوة بين الرواتب

4

نسف ممنهج للعدالة الاجتماعية

5

5 دولارات سنوياً بدل إشغال متر الشاطئ

6

الدول الغربية تستعيد سلوكيات الحرب الباردة

7

في الواجهة

افرزت التعديلات التي اقرّها مجلس نقابة المحامين في بيروت الشهر الماضي، والتي تقضي بتنظيم العلاقة بين المحامين ووسائل الإعلام، واقعاً جديداً في نقابة المحامين وجعلت «علاقة المحامين بوسائل الإعلام على المحك» (راجع «القوس»، 25 آذار 2023). تشهد النقابة منذ ذلك الوقت تجاذبات وإطلاق شعارات تقابلها اخرى، فشعار «تنظيم الفوضى الإعلامية عند المحامين» الذي رفعه مجلس النقابة حين اصدر قرار التعديلات، قابله شعار «رفض التعدّي على حرية الرأي والتعبير عند المحامين» الذي رفعه عدد من المعارضين للتعديلات. تتجه انظار اكثر من 12 الف محام، بموازرة الرأي العام اللبناني إلى القرار الذي تصدره محكمة الاستئناف المدنية في بيروت الناظرة في القضايا النقابية برئاسة القاضي ايمن عويدات الخميس المقبل. ومن المتوقع ان تكون لهذا القرار الكلمة الفصل في النزاع الحاصل اليوم، سواءً لتكريس التعديلات الصادرة عن مجلس النقابة او إلغائها بعد قبول الطعن والاخذ به. اجرت «القوس» جولة في نقابة المحامين في بيروت للوقوف على راي نقيب المحامين ناضر كسبار وعدد من اعضاء مجلس النقابة والمحامين المؤيّدين والمعارضين لقرار التعديلات

فاطمة خشاب درويش

جولة على مواقف وآراء محامين في تعديلات النقابة

أهل مكة أدرى بشعابها

ناضر كسبار

الاستحصال على الإذن محصور بالندوات والمقابلات القانونية

يشير نقيب المحامين في بيروت ناضر كسبار إلى أنه بعد تعديل بعض العبارات في المادة 41 من نظام آداب مهنة المحاماة، «قامت قيامة حوالي ثلاثين محامياً». ويلفت إلى أن «عدداً من المحامين وخلافاً للمناقبية المهنية ولمبدأ الانتماء إلى نقابتهم العريقة ظهروا في عدد من وسائل الإعلام للتوجّه إلى قسم من الرأي العام من باب قمع حرية التعبير»، سائلاً: «أين القمع الذي تمارسه النقابة؟ من يمنع المحامين من الكلام عن الأمور الوطنية والإدارية التي هي أساس حرية التعبير؟ كالتطرّق إلى ملفّ الفراغ الرئاسي وانتخاب رئيس للجمهورية، أين هم من هذا الملف؟ ولماذا لم يتكلموا عن الانتخابات البلدية التي مرّت مرور الكرام، لماذا لم يكتبوا أو يستنكروا الموضوع؟».

ويتابع: «هناك ملفات كثيرة تستحق الحديث عنها، سواءً ملف المرفأ أو ملف أموال المودعين، أو ملف النفط والغاز، أو ملف الجمعيات التي تتقاضى أموالاً طائلة من الخارج من باب الإنسانية، فضلاً عن ملفات الفساد في النافعة. فمن يمنع المحامين من التطرق إلى كل هذه الملفات المهمة في المجتمع والتي تُعدّ من قضايا الشأن العام، سواءً على وسائل الإعلام أو حتى في قاعات المحاضرات في البلديات والنوادي والمدارس؟ لا أحد يمنعهم، هنا تكمن حرية التعبير غير الممنوعة والتي لا تحتاج إلى أي إذن».

ويضيف: «أكرّر أن الاستحصال على الإذن محصور بالندوات والمقابلات القانونية، فخلال ثلاثة أسابيع أُعطيَ الإذن بالظهور الإعلامي لـ 105 محامين من أصل 106 طلبوا ذلك، والحالة الواحدة التي لم تعطَ الإذن كانت تتناول قضية قتل عالقة أمام القضاء. فما المشكلة في استئذان النقيب؟ أعمل على تنبيه المحامي ولفت نظره إلى وجوب عدم التطرق إلى قضايا قُيِّد النظر فيها، وهذا الأمر مكرّس بالقانون وليس فقط في النظام الداخلي للنقابة».

وحول استدعاء المحامي نزار صاغية والاستماع إليه من قِبل مجلس النقابة منذ أيام قليلة على خلفية ما جرى نشره بعد صدور قرار مجلس النقابة بالتعديلات في المفكرة القانونية، يقول كسبار: «اعتقد صاغية أنه سيشطب إدارياً بتخيّلات لا نعلم مصدرها، جعله يتواصل ويتساعد مع غيره ممّن دخلوا على الخط، وكانوا من أكثر من تعامل بصورة سيئة مع المحامين، لتوجيه وسائل الإعلام والرأي العام من خلال طرح فكرة أن هناك قمعاً وكبتاً للحريات الإعلامية في النقابة، والحقيقة غير ذلك وخصوصاً بعدما تكاتف 12 ألف محام مع نقابتهم، الأمر الذي أثّر على مصداقية عدد من وسائل الإعلام وأفقدها موضوعيتها في معالجة الأمور».

ويوجّه كسبار نداءً عبر «القوس» إلى كل المحامين قائلاً: «لم أحزن طوال حياتي كما حزنت من تصرفات أولئك المحامين الذين وقفوا خارج أسوار قصر العدل وتفوّهوا بالكلام البذيء بحقّي كنقيب وبحقّ مجلس النقابة والمحامين، وقد كرّست حياتي في خدمة هذه النقابة، هؤلاء غرباء عن النقابة وعن مهنة المحاماة، ولا يعلمون الفرق بين القانون والأنظمة الداخلية لكل نقابة أو مؤسسة على طريقة «فليسقط واحد من فوق» والمؤسف أن يفتقد عدد من المحامين إلى الحسّ المهني والنقابي والعمل ضد نقابتهم والتحريض عليها».

ويختم: «فلنعد إلى مبادئنا التي تربّينا عليها وإلى شرف الانتماء إلى نقابة المحامين، التي تحمي الجميع وتحافظ عليهم».

نزار صاغية

ما يُسمّى حملة هو بالواقع احتكام للرأي العام

يؤكد المحامي نزار صاغية أنه ليس في موقع المعارض لنقابة المحامين، فهو يعمل وينسّق معها بشكل مستمر، واجتمع لمرات عدة مع نقيب المحامين للحديث عن أموال المودعين وغيرها من القضايا التي تهم المجتمع.

يعرب صاغية عن حرصه الكبير على عضويته في النقابة، ويقول: «أنا متمسّك بالنقابة بقدر تمسّكي بحرية الرأي والتعبير، ولا يمكن أن أتخلى عنها». ويحصر المشكل الحاصل اليوم مع النقابة بـ«رفضه للتعديلات التي أقرّها المجلس بتاريخ 3 آذار 2023»، مشيراً إلى أن «هذه التعديلات تمسّ بمبدأ الحريات التي يكفلها الدستور اللبناني والمادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولا يمكن عدّها شأناً داخلياً لأنها ترتبط بالحريات العامة وحرية الأفراد والمجتمع».

وحول ما جرى في جلسة الاستماع إليه من قِبل نقابة المحامين في بيروت «من دون مقاطعة»، قال صاغية إنها دارت حول ما سمّاه المجلس حملة للتشكيك في دور النقابة. وقد استمرت الجلسة ما يقارب الـ 4 ساعات، واصفاً إياها «بالهادئة»، وعمد إلى تأكيد أن «ما يُسمّى حملة، هو بالواقع احتكام للرأي العام دفاعاً عن النفس»، وخاصة بعد استدعائه والتهويل بشطبه على خلفية بيان وصف النقيب بالرقيب.

ويتابع: «اعتراضي الأساس هو على فرض رقابة مسبقة على المحامين. فليُحاسب من يخالف آداب المهنة بصورة لاحقة، المشكل الأساسي هو في هذه التعديلات».

ويختم صاغية: «لا يفترض للاختلاف أن يؤدي إلى العداوة، بل آمل أن يولّد ديناميةً تخرج منها النقابة أكثر تمسّكاً بالحريات وانفتاحاً على المجتمع».

ماري كلود نجم

إلزام المحامي بالحصول على إذن مسبق قبل إجراء أي مقابلة غير منطقي

«ما يحصل اليوم في نقابة المحامين ليس جديداً، فقد سبق أن حصل أمر مشابه خلال ولاية النقيب أمل حداد حين أرسلت كتاباً للمحامين طلبت فيه الأمر ذاته»، تقول عميدة كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف ووزيرة العدل السابقة ماري كلود نجم، مستغربةً قرار النقابة وربط ظهور المحامي الإعلامي بالإذن المسبق. وتضيف: «تواصلت مع أعضاء النقابة بعد قرار التعديلات، وأرى أنه من غير المنطق إلزام المحامي بالحصول على إذن مسبق قبل إجراء أي مقابلة، وهو نوع من الرقابة المسبقة غير المباشرة».

وتشير إلى أن «هناك ضرورة للرقابة من أجل انتظام العمل النقابي، أي الرقابة اللاحقة للإساءة في استعمال حق التعبير ومخالفة القوانين، وليس رقابة مسبقة عبر نظام طلب وإعطاء الإذن. فالقانون يتضمّن نصّاً يمنع المحامي بالتحدث عن ملفات عالقة أمام القضاء إلّا ما يتعلق بقضايا الشأن العام. الضابط القانوني موجود ويمكن استدعاء أي محام في حال مخالفته».

من جهة ثانية، تعدّ نجم أن «هذه التعديلات تحمّل النقيب عبئاً كبيراً، غير مضطر لحمله، وتضعه في الواجهة مع المحامين. فعلى أي أساس سيسمح النقيب أو سيمنع المحامين من الظهور الإعلامي؟ وفي حال إعطاء الإذن للمحامي بالظهور سيتحمّل النقيب مسؤولية ما سيقوله خلال المقابلة، وفي حال أساء المحامي استخدام هذا الإذن، سيكون النقيب تحت طائلة المساءلة، لماذا أعطيته الإذن؟».

وتتابع: «في حال وجود شكاوى، من الطبيعي أن يستدعي النقيب المحامي ويستوضح منه حول الموضوع وإذا لزم الأمر تتم إحالته تأديبياً». وحول قرار المحكمة الاستئنافية يوم الخميس المقبل، تقول نجم: «تتجه الأمور إلى التهدئة، وفي جميع الأحوال إن محكمة الاستئناف سوف تعطي قرارها بالطعن المقدّم إليها، وإذا أبطلت المحكمة التعديلات المتّخذة من مجلس النقابة ينتهي الموضوع عند هذا الحد. وفي حال عدم إبطالها، برأيي، سيكون هناك مخرج مناسب وطبيعي وهو الرجوع عن القرار أو يمكن طرح التعديلات على الهيئة العامة للمحامين».

إسكندر نجار

الاستشارات الخاطئة عبر الإعلام قد تلحق ضرراً

يعبّر عضو مجلس نقابة المحامين في بيروت المحامي إسكندر نجار عن أسفه حول ما يحصل لأن «محاولة البعض تضليل الرأي العام وتجييش الناس وإيهامهم بأن نقابة المحامين "تكمّ الأفواه" في حين أنها كانت ولا تزال المدافعة الأولى عن حقوق الإنسان والحريات العامة، كما زعم هؤلاء أن مجلس النقابة "سلطة" تابعة للمنظومة وللأحزاب».

مشيراً إلى «أن مجلس النقابة مستقل تماماً ولا يتلقّى توجيهات أو وصاية من أحد، كما أن نقابة المحامين هي في طليعة من دافع ويدافع عن حقوق المواطنين وخصوصاً المودعين وأهل الضحايا». مؤكداً أن «التعديل المشكوّ منه لا يعدو كونه تدبيراً داخلياً لتنظيم الظهور الإعلامي، وهو موجود في أنظمة وقوانين عدة نقابات أخرى كنقابة الأطباء، وفي النظام الداخلي لعدة جامعات».

ويؤكد نجار أن «الإطلالات الإعلامية للمحامين المتعلقة بالقضايا السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية هي حرة تماماً، خلافاً لما قيل، كما أن المقالات والمحاضرات والندوات القانونية لا تستوجب أي موافقة على الإطلاق»، لافتاً إلى أن التدبير الجديد يتعلّق فقط بطرح المسائل القانونية عبر وسائل الإعلام لتفادي التجاوزات التالية:

أ - إطلالات دورية لعدد من المحامين، البعض منها مدفوع، ما يشكّل دعاية مباشرة أو غير مباشرة لجلب الزبائن يحظرها قانون تنظيم مهنة المحاماة، علماً أن هذه الممارسات تضرب عرض الحائط بمبدأ المساواة بين المحامين.

ب- قيام بعض المحامين بإعطاء استشارات خاطئة عبر وسائل الإعلام، ما قد يلحق ضرراً بالمواطنين ويسيء إلى المهنة.

ج - الحديث علناً عن ملفات مطروحة أمام القضاء وشتم بعض القضاة، ما يخلّ أيضاً بقسم المحامين وبمبدأ المساواة بين المحامين، إذ قد تؤثّر إطلالة من هذا النوع على الرأي العام وعلى المحكمة الناظرة في القضية، وذلك على حساب المحامي الذي لم يُبدِ موقفه عبر وسائل الإعلام دفاعاً عن وجهة النظر الأخرى.

وردّاً حول اعتقاد البعض أن ملاحقة المحامي المخالف هي أفضل من اتباع التدبير الجديد، يلفت نجار إلى أن «ذلك يعني إحالة المخالفين إلى المجلس التأديبي، الأمر الذي سيؤثّر سلباً عليهم في حال صدور عقوبة بحقّهم». موضحاً أن «مجلس النقابة ارتأى الوقاية في هذه الحالة باعتباره أفضل من العلاج، وستؤدّي حتماً إلى حثّ المحامين على التصرّف بمسؤولية وحكمة، من تلقاء نفسهم، في علاقتهم مع الإعلام».

ويتابع: «من المؤسف أن يقدم عدد محدود من المحامين، لا يتخطى نسبة 1% من مجمل المحامين، على مخاطبة الرأي العام باسم زملائهم الذين لم ينتخبوهم أصلاً، وعلى التطاول، مباشرةً أو بواسطة مواقع حليفة لهم، على النقابة والنقيب ومجلس النقابة بأساليب تتضمّن قدحاً وذماً وتحقيراً وتشهيراً وتستوجب تقديم شكاوى جزائية بحقّ الفاعلين. إنها سابقة خطيرة استنكرها المحامون بحزم».

أما بالنسبة إلى الدعوى المقامة من 13 محامياً أمام محكمة الاستئناف الناظرة في الشؤون النقابية، فيؤكد نجار أن «هذا حقهم المشروع وكنا نفضّل لو احتكموا إلى القضاء بدلاً من نقل الخلاف إلى الخارج لأسباب لا تُخفى على أحد». ويختم نجار: «اتّهمني البعض بأنني وراء هذا التعديل في حين أن القرار اتُّخذ بإجماع أعضاء المجلس وعددهم 12. وقد قمت، في مستهلّ الجلسة وقبل المناقشة، بعرض هواجس المعترضين وبتوزيع دراسة معدّة من قِبل أحدهم، بغية مقاربة الموضوع من مختلف جوانبه. فكفى تضليلاً».

نبيلة نعيم

الأولوية الحفاظ على النقابة

«أكثر ما استفزّني هو التطاول على النقابة ونقيب المحامين من قِبل مجموعة لا نعرفهم هم من غير المحامين، ومن بعض الصحافيين المأجورين والمموّلين من جهات مشبوهة»، تعبّر المحامية نبيلة نعيم عن استيائها ممّا جرى وتقول: «قام عدد من الزملاء بعرض أمور نقابية تخصّ المحامين على وسائل التواصل وأدى ذلك إلى تداول الصحافة بالشؤون النقابية، وذهب البعض إلى التطاول على النقابة والنقيب وشنّوا هجوماً ضارياً لا تفسير له. نقابة المحامين ليست مادةً للتداول فهي أمّ النقابات وذات تاريخ عريق، وستبقى نبراساً للعدالة رغم كل الأزمات».

جاد طعمه

الطعن لا يعني شرخاً في النقابة

«الطعن في قرار مجلس نقابة المحامين لا يعكس وجود أي انقسام داخل النقابة، واللجوء إلى القضاء عند الاختلاف في وجهات النظر القانونية هو مشهد حضاري، وهذا لا يعني أن عائلة المحامين في خطر ولا أن هناك شرخاً داخل النقابة». يؤكد المحامي جاد طعمه وهو أحد المحامين الثلاثة عشر الذين تقدّموا بالطعن الأول ضد قرار مجلس نقابة المحامين في بيروت الأخير، ويضيف أن «وضع حد للتجاوزات التي يقوم بها عدد من المحاميات والمحامين، كما جاء في الأسباب المُعلنة والموجبة للتعديل، هو أمر ضروري. لكن تخوفنا أن يُساء استعمال التعديلات لتطال مفاعيلها الناشطين الذين يعملون في مجال مكافحة الفساد، وهذا ما دفعنا لتقديم الطعن، لأنها تعديلات عامة وشاملة ولا تميّز بين حالة وأخرى».

ويشير طعمة إلى أن «طريقة مقاربة الإعلام لموضوع التعديلات الأخيرة أدّت إلى ردود فعل قاسية»، معرباً عن تفهّمه لغضب الناس ولانزعاج النقابة في أن معاً. ويشدّد طعمه على «ضرورة التعقّل من أجل إجراء تقييم موضوعي في ضوء حركة الاعتراض التي حصلت». ويعُدّ أن «الحريات منصهرة مع المحاماة، فلا يمكن أن نسلب من المحامي حريته لأنها أغلى ما يملك».

وليد جدرج

المشاكل تُحلّ في بيت المحامي وليس على الشاشات

يشبّه عضو المجلس التأديبي في نقابة المحامين في بيروت المحامي وليد جدرج ما يجري اليوم في نقابة المحامين بـ«الزوبعة»، مؤكداً أنها «ستنتهي قريباً»، ومشدداً على «ضرورة أن تُحلّ الأمور بين المحامين في بيت المحامين وليس على شاشات التلفزة ونشر الغسيل على حبال مواقع التواصل الاجتماعي، ما يجري هو أزمة داخلية تُحلّ داخلياً من خلال الحوار والتواصل المباشرَين بين المحامين». ويتابع: «ما صدر من قرارات عن مجلس النقابة لجهة تعديل المواد المتعلقة بالظهور الإعلامي هو لضبط الفوضى الإعلامية عند عدد من المحامين لا أكثر ولا أقل، إذ يطرح بعض المحامين، وربما تكون نسبتهم لا تتجاوز الـ1%، آراءً قانونيةً خاطئة، وهذا الخطأ للأسف، يُحسب على كل المحامين وعلى جسم النقابة وليس فقط على سمعة المحامي».

كسبار: «أعتقد صاغية انه سيُشطب إدارياً بتخيّلات لا نعلم مصدرها، ما جعله يتواصل ويتساعد مع غيره ممّن دخلوا على الخط، لتوجيه وسائل الإعلام والرأي العام من خلال طرح فكرة أن هناك قمعاً وكبتاً للحريات في النقابة»

■■■

صاغية: «اعتراضي الأساس هو على فرض رقابة مسبقة على المحامين. فليُحاسب من يخالف آداب المهنة بصورة لاحقة. المشكل الاساسي هو في هذه التعديلات»

■■■

نجار: «الحديث علناً عن ملفات مطروحة امام القضاء وشتم بعض القضاة، كلّ ذلك قد يؤثّر على الرأي العام وعلى المحكمة الناظرة في القضية»

تحت القوس

التمسّك بالمبادئ للحفاظ على النقابة

فداء عبد الفتاح

ضجّت وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي وكذلك أروقة قصور العدل بالقرار الأخير لنقابة المحامين في بيروت، الذي ألزم المحامين بضرورة الاستحصال على إذن مسبق من النقيب حصراً قبل أي تصريح أو ظهور إعلامي، باعتبار أن هذا القرار ليس إلّا تأكيداً على ضرورة الالتزام بقانون تنظيم مهنة المحاماة بحسب نقيب المحامين ناضر كسبار.

قبل الدخول في تداعيات هذا القرار، لا بدّ من التوضيح أن مهنة المحاماة في لبنان يحكمها قانون تنظيم المهنة الذي يصدر عن السلطة التشريعية وهي المخوَّلة إجراء أي تعديل عليه. وقد أعطى هذا القانون للنقابتَين في بيروت وطرابلس الحقّ في وضع نظام داخلي خاص بكل نقابة ينظّم العلاقة بينها وبين المحامين المنتسبين إليها. صدر قانون تنظيم المهنة الأول بالقرار الرقم 655 في عام 1921، وأجريت عليه تعديلات عدة، إلى أن نُشر في الجريدة الرسمية مع كلّ تعديلاته في شباط من عام 1991*.

ولم تجر عليه أي تعديلات منذ ذلك التاريخ رغم الحاجة الملحّة إليها (سنتطرق إلى هذا الموضوع بشكل مفصّل في مقال خاص حول قانون تنظيم مهنة المحاماة).

في عام 2014، أضيف على النظام الداخلي لنقابة المحامين في بيروت فصل (سادس) متعلق بعلاقة المحامي مع وسائل الإعلام، يتضمّن أربع موادّ وهي: 39 و40 و41 و42. تتناول هذه المواد بشكل واضح ضوابط استخدام المحامين لوسائل الإعلام والاتصالات في الدعاوى والقضايا العالقة أمام القضاء (حصراً). إذ يُمنع المحامي من الحديث عنها أو مناقشتها إلّا بعد أخذ موافقة مسبقة من نقيب المحامين، وقد جاء النصّ واضحاً ولا لبس فيه لجهة تحديد سبب أخذ الموافقة في القضايا العالقة أمام القضاء، من دون أي توسّع لجهة أي نشاط آخر للمحامي، سواءً كان نشاطاً حقوقياً أو سياسياً أو اجتماعياً.

كما حدّد قانون تنظيم مهنة المحاماة في الفصل الثاني منه واجبات المحامي لجهة التزامه في جميع أعماله بمبادئ الاستقامة والشرف والنزاهة ومنعه من القيام بالدعاية لنفسه بشكل مباشر أو من خلال وسطاء أو سماسرة. وقد أكّد النظام الداخلي لنقابة المحامين في بيروت في المادة 41 منه أنه: "يستحسن أن يُحيط المحامي نقيب المحامين علماً بأي وسيلة متاحة برغبته بالاشتراك في ندوة أو مقابلة ذات طابع قانوني عام تنظمها إحدى وسائل الإعلام، محدداً زمانها وموضوعها واسم وسيلة الإعلام. وفي جميع الأحوال على المحامي إبقاء الحوار ضمن الإطار العلمي والأكاديمي...". ونصّت المادة 42 بشكل واضح على أنه: "يُمنع على كل محامٍ أن يصدر أو يروّج أو ينشر أي مجلة أو مُطبوعة أو نشرة بشكل مباشر أو غير مباشر ذات طابع نقابي أو تتعلق بنشاطات النقابة بأوجهها كافة، بواسطة وسيلة إعلامية أو إعلانية أو بواسطة شبكة الإنترنت والمواقع الإلكترونية، ويبقى لمجلس النقابة وحده الحق بإصدار هكذا مجلة أو مطبوعة أو نشرة باسم نقابة المحامين في بيروت".

المواد الواردة أعلاه ليست جديدة بل هي مواد تحكم عمل المحامين منذ نشأة النقابتَين وأنظمتهما الداخلية، فما هو الجديد اليوم؟

مشكلة مهنة حل المشكلات

يبدأ المحامون حياتهم المهنية بقسم اليمين الذي يمنحهم شرف الانتساب إلى نقابتهم والحقّ ببدء مزاولة المهنة، بعد اجتيازهم اختبار الدخول إلى النقابة بشقّيه الشفهي والخطي. والمحاماة هي مهنة حلّ المشكلات والحماية منها على جميع الصعد، والمحامي هو الموجّه والمصوّب والمدقّق لكل المهن، وهو

(هيلم الموسوي)

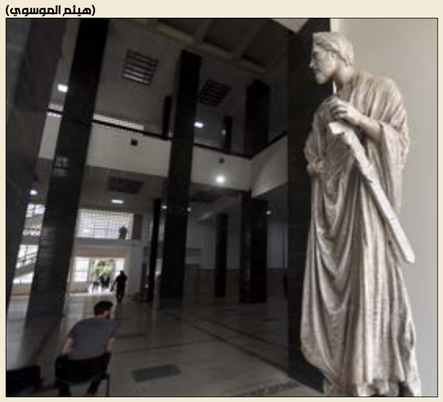

العين الساهرة على حماية الحقوق. وأن يكون الفرد محامياً في لبنان، أو في أي مكان في العالم، لا يعني فقط أن عليه القيام بالدور الوظيفي المطلوب من المحامي نيابة عن موكله، إنما أن يرى ما لا يراه الموكل وأن يتوقع ما قد يحدث وأن يؤمّن كل أنواع الحماية. ولأن حمل لواء الدفاع عن المجتمع وقضاياه ليس بالأمر السهل، ويتطلب صفات تتعدى شهادة الحقوق والانتساب إلى نقابة المحامين لتصل إلى بناء فكري وأدلجة تتبنى حمل ثقافة حقوق الإنسان والنضال من أجل مجتمع أفضل والدفاع عن القضايا الوطنية الكبرى. وعندما تُضاف هذه الصفات إلى حامل الشهادة والمنتسب إلى النقابة، تؤهله لأن يكون في مقدّمة كل تحرّك ونشاط وعمل على المستوى السياسي، وفي طليعة كل مواجهة مطلبية، فتُعرَف أسماؤهم من نضالاتهم على الأرض وفي صفوف الجماهير. وهذا كله لا تنطبق عليه ضوابط النظام الداخلي لنقابة المحامين لجهة منع المحامي من القيام بالدعاية لنفسه بشكل مباشر أو بالوساطة.

الرأي العام سلاح ذو حدّين

تطورت آليات التقاضي الاستراتيجي في زمن الـ«سوشل ميديا» (تحويل أي قضية إلى قضية رأي عام)، ولجأ العديد من المحامين إليها لدعم قضايا مرتبطة بالشأن العام، بعضهم عن معرفة ودراية بكل آلياتها، وآخرون ممّن ادّعوا المعرفة، حاولوا الظهور على حساب قضايا الناس في ملفات مرتبطة بالشأن العام أو بالإمكان تحويلها إلى قضايا رأي عام. ولأن الرأي العام بات السلاح الأقوى محلياً وعالمياً وهو سلاح ذو حدّين، فمن يمتلك أدواته ولا ينطلق في المواجهة من قاعدة العدل والإنصاف سيساهم في تحويل هذا الرأي إلى سلاح يفتك بالمجتمع ويشوّه الحقائق، ويؤدي إلى اختلال ميزان العدالة وحق كل الأطراف بالمحاكمة العادلة.

من أزماتنا البنيوية، نظام طائفي قائم على المحاصصة تغيب معه دولة القانون، يساهم في ظهور نماذج لناشطين وسياسيين ومن بينهم محامون استخدموا هذه الآليات لتشويه الحقائق وتمييع القضايا. وتحوّلت آليات المناصرة إلى سلاح جديد استخدمه البعض لمواجهة الخصوم ووضعهم تحت ضغط الرأي العام الذي ينجرّ بغالبيته للدفاع أو الهجوم من دون أي تحليل أو تدقيق. كما استُخدم هذا السلاح في حالات عدة من أجل مصالح شخصية لا علاقة للمجتمع فيها.

> **بات الرأي العام السلاح الأقوى وهو سلاح ذو حدّين، فمن يمتلك أدواته قد يساهم في اختلال ميزان العدالة وحق كل الأطراف بالمحاكمة العادلة**

نقابة المحامين ومسؤولياتها تجاه المجتمع

معالجة التجاوزات، لخطورتها على عمل المحامين من جهة وعلى المجتمع من جهة أخرى، لا يمكن أن تكون بمزيد من الانتهاكات للحقوق والحريات باسم أمّ النقابات. كما لا تُعالج بتقويض دور المحامين الأساسي في الدفاع عن الحقوق، ولا بقرارات رقابية سابقة تتغيّر وفقاً لأهواء المنتصر في كل معركة انتخابية في نقابة المحامين كل سنتين، إنما تُواجَه من خلال قيام النقابة بدورها الأساسي والمحوري والقيادي في عملية الدفاع عن حقوق المجتمع وحمل لواء مناصرة كل قضايا الحقّ مجتمعة، من دون أي اصطفافات من أيّ نوع كانت، والوقوف إلى جانب المحامين الناشطين ودعمهم وتأمين جميع متطلباتهم وأدوات صمودهم في معركة الدفاع عن الحقوق والحريات. وفي الوقت عينه، تستوجب الجرأة في المحاسبة والمساءلة للمدّعين والمحرّضين والمستغلين لصفتهم كمحامين بوسائل المحاسبة اللاحقة كافة، عندما يُثبت انتهاك المحامي لقانون تنظيم المهنة وللنظام الداخلي لنقابة المحامين، إذ يتعلق هذا الانتهاك بشكل محصور بآليات المحامي في تحويل قضية يعمل عليها إلى قضية رأي عام مطروحة للنظر فيها أمام المحاكم، ومدى التزامه بعدم التطرّق إلى سرية التحقيق من جهة، كما عدم نشر أي معلومات غير صحيحة أو مضخّمة عن القضية المطروحة والالتزام بالفصل السادس من النظام الداخلي لنقابة المحامين في بيروت. وهذا كله لا علاقة له بنشاط المحامي، سواءً كان نشاطاً سياسياً أو حقوقياً أو اجتماعياً، لأنه حاجة مجتمعية ونقابية ويصبّ في خدمة المجتمع، وواجب على نقابتَي المحامين في بيروت وطرابلس.

*** صدرت سنة 1921 الشروط اللازمة لمزاولة مهنة المحاماة بقرار رقم 655 تاريخ 1921/05/26. أما قانون تنظيم مهنة المحاماة فصدر بتاريخ 1935/05/23 ثم في 1945/12/13، وبعد ذلك صدر قانون تنظيم مهنة المحاماة بموجب القانون الرقم 8 تاريخ 1970/03/11، وتالياً بالقانون الرقم 18 تاريخ 1978/12/18 إلى أن عُدّل هذا القانون في عام 1991. وبالتالي فإن القانون قد صدر عام 1970 وجرت التعديلات المذكورة عليه، وكان آخرها بتاريخ 1991/9/21.**

متابعة

مرسوم الحدّ الأدنى للأجور يخلق فجوة بين الرواتب

صادق علوية

صدر عن مجلس الوزراء المرسوم الرقم 2023/11226 الذي نصّ على تعيين الحد الأدنى للأجور بتسعة ملايين ليرة، وإقرار زيادة غلاء معيشة بقيمة أربعة ملايين وخمسمئة ألف ليرة. وبعد نشر المرسوم، ظهرت فجوة في قيمة الزيادة بين الأجراء، فعلى سبيل المثال، سيتفاوت الأجر بين زميلين في المؤسسة نفسها، حيث يتقاضى أحدهما زيادة تفوق راتب الآخر، وفقاً للقاعدة القانونية للحد الأدنى للأجور وغلاء المعيشة. إذ يُمنح الأجير زيادة غلاء معيشة شرط ألّا يقلّ مجموع راتبه الجديد عن الحد الأدنى للأجور، وإذا قلّ راتبه عنه، يقتضي منحه زيادات استلحاقية ليصل إلى هذا الحد، مهما يخلق تفاوتاً بين الأجراء في قيمة الزيادات. فكل أجير يقلّ راتبه عن 4,500,000 سيتقاضى زيادة تفوق كل من يتقاضى راتباً أعلى من هذا المبلغ، والسبب هو سوء التنسيق في نقطة الانطلاق بين أعمال لجنة المؤشر ومجلس الوزراء، فما هي تفاصيل هذه الفجوة؟

في العام 2012 عُيّن الحد الأدنى الرسمي لأجور المستخدمين والعمّال الخاضعين لقانون العمل بمبلغ 675,000 ليرة، بموجب المرسوم رقم 7426 تاريخ 2012/1/25.

بعد عشر سنوات، تحديداً في العام 2022، أضاف المرسوم رقم 9129 تاريخ 2022/05/12 إلى هذا الحدّ الأدنى للأجور زيادة غلاء معيشة قدرها 1,325,000 ل.ل. ليصبح المجموع مليونَي ليرة، والذي أصبح يُعرف بالحد الأدنى للأجور (لكنه غير رسمي).

كما صدر في العام نفسه المرسوم رقم 10598 تاريخ 2022/10/19 حول إقرار زيادة مالية على الأجر الشهري للمستخدمين والعمّال الخاضعين لقانون العمل تبلغ 600 ألف ليرة وأصبح الحد الأدنى للأجور 2,600,000 ل.ل. (وهذا أيضاً غير رسمي).

إلى أن انطلق اجتماع لجنة المؤشر في 13 كانون الثاني 2023 من هذا الرقم ليضيف 1,900,000 ليرة، ويصبح المجموع 4,500,000 ليرة. ولكن لم يصدر مرسوم بذلك عن مجلس الوزراء، ومن هنا بدأت المشكلة.

في 30 آذار 2023، انطلق اجتماع لجنة المؤشر مجدداً من الرقم 4,500,000، من دون أن يصدر مرسوم بذلك، ليقرّ 4,500,000 ليرة إضافية ويصبح الحد الأدنى الرسمي للأجور 9,000,000 ل.ل.

وبتاريخ 2023/4/18، قرّر مجلس الوزراء الموافقة على رفع الحد الأدنى للأجور إلى 9 ملايين وعلى زيادة غلاء المعيشة إلى 4,500,000 من دون استصدار المرسوم السابق باتفاق 13 كانون الثاني. وصدر المرسوم رقم 2023/11226 بتاريخ 2023/4/26 الذي يتضمّن الاتفاق الأخير للجنة المؤشر من دون الاتفاق الذي سبقه، فماذا سيحصل؟

كيف تطبّق زيادة غلاء المعيشة بالتزامن مع الحد الادنى للاجور؟

يقتضي أن يستفيد جميع الأجراء من زيادة غلاء المعيشة ولا يجوز أن يقلّ راتب أي أجير عن الحد الأدنى للأجور في الوقت نفسه، فإذا بلغ راتب أحدهم 2,600,000 وتقاضى زيادة تبلغ 4,500,000 ل.ل. يصبح مجموع راتبه 7,100,000، وبهذا لا يصل إلى الحد الأدنى للأجور الحالي، ما يقضي بضرورة رفع راتبه لتصبح الزيادة التي يتقاضاها 6,400,000 ليرة. في حين أن زميله الذي يبلغ راتبه 4,500,000 سيصبح راتبه 9,000,000 ل.ل. (الحد الأدنى الحالي) وتبلغ الزيادة التي تقاضاها 4,500,000 أي أقل بـ 1,900,000 وهي ما سنطلق عليه اسم «الليرات الاستلحاقية».

الحل بدمج الليرات الاستلحاقية ضمن زيادة غلاء المعيشة

لو أصدرت الحكومة المرسوم الأول الذي يتضمن زيادة غلاء المعيشة البالغة 1,900,000 ليرة، لحُلّت المشكلة حتماً. علماً أن وزير العمل قد تنبّه إلى هذا الأمر في اليوم التالي لصدور المرسوم، وأصدر تعميماً توضيحياً أشار فيه إلى أنه سيصدر لاحقاً عن مجلس الوزراء مرسوم جديد مكمّل للمرسوم الحالي، بحيث يُضاف مبلغ مليون وتسعمئة ألف على زيادة غلاء المعيشة، لتصبح 6,400,000 ل.ل. بدلاً من 4,500,000 ل.ل.

وبذلك، إذا صدر المرسوم الموعود، تصبح الزيادة لجميع الأجراء 6,400,000 ليرة، وإذا تقاضاها أي أجير فإن الزيادة ستكون متساوية بين الجميع، باعتبار أن أقلّ راتب رسمي وفقاً للمراسيم يبلغ 2,600,000 وإذا أضيفت إليه الزيادة الموعودة سيبلغ المجموع الحد الأدنى للأجور المحدّد بتسعة ملايين ليرة من دون أي ليرات استلحاقية.

فهل سيصدر المرسوم؟

في حال إعطاء زيادة غلاء المعيشة البالغة 4,500,000 ل.ل. من دون تطبيق زيادة الـ 1,900,000 ل.ل.

الراتب السابق	زيادة 1	زيادة 2	مجموع الراتب مع الزيادات	زيادة استلحاقية لبلوغ الحد الأدنى للأجور البالغ 9000,000	المجموع النهائي	مجموع الزيادات
2,600,000	4,500,000	-	7,100,000	1,900,000	9,000,000	6,400,000
5,000,000	4,500,000	-	9,500,000	-	9,500,000	4,500,000
					الفارق بين الأجراء	1,900,000

في حال إعطاء زيادة غلاء المعيشة الجديدة البالغة 4,500,000 ل.ل. إضافة إلى الزيادة البالغة 1,900,000 ل.ل.

الراتب السابق	زيادة 1	زيادة 2	مجموع 1	زيادة استلحاقية لبلوغ الحد الأدنى للأجور البالغ 9,000,000	المجموع النهائي	مجموع الزيادات
2,600,000	4,500,000	1,900,000	9,000,000	-	9,000,000	6,400,000
3,000,000	4,500,000	1,900,000	9,400,000	-	9,400,000	6,400,000
					الفارق	-

في الواجهة

الاحتفال بعيد العمّال هذا العام
نسف ممنهج للعدالة الاجتماعية

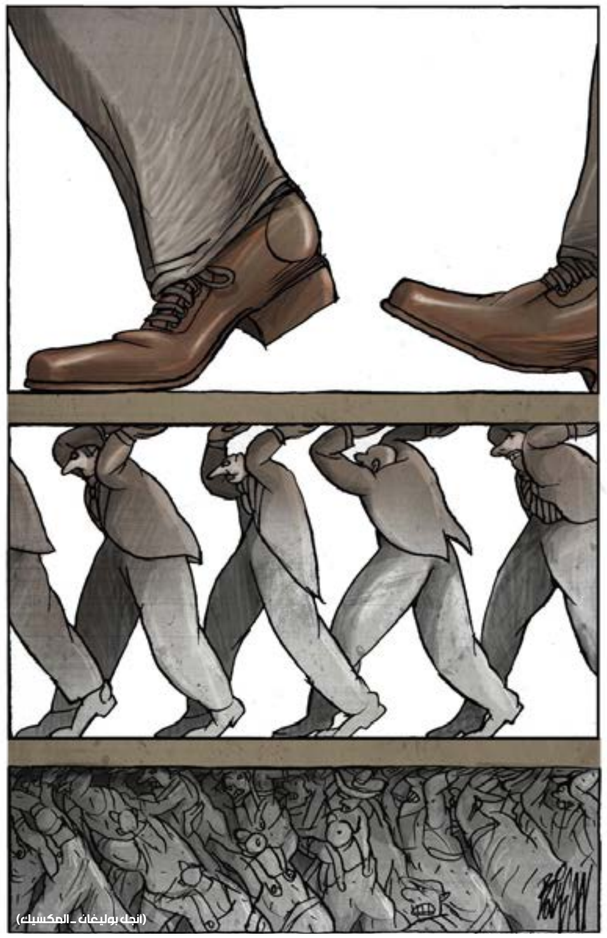

(أنجو بوليغان ـ العكسبك)

نائلة نحلة

يحلّ عيد العمّال العالمي في لبنان هذا العام، كغيره في الأعوام السابقة، محمّلاً بأزمات اقتصادية واجتماعية ومعيشية، إلا أن هذه السنة تفوّقت على غيرها بسلب العمّال أدنى حقوقهم. فلائحة المطالب تطول ولا يمكن تفضيل مطلب على آخر، بدءاً من الأجور التي فقدت قيمتها وصولاً إلى الضمان الصحي والأمن الاجتماعي والتعليمي.

وفي ظل غياب الدولة ومؤسساتها وعجزها عن تقديم المساعدة وسدّ الفجوة الكبيرة والتفاوت بين ما يجنيه العامل وما هو ملزم بتسديده، خصوصاً مع انهيار قيمة العملة الوطنية وتلاشي قدرة العمّال على المكافحة والاستمرار بأجور بلا قيمة لا تكفي لسداد الحدّ الأدنى من ضروريات الحياة. يجد العامل نفسه مجبراً على تأمين مورد رزق ثانٍ، بدل الاكتفاء بالعمل لثماني ساعات، فالرفاهية والراحة في العمل لم تعودا من أولوياته، إنما الكدّ طوال اليوم لتأمين قوت أبنائه. فمتى ينعم العامل بالراحة في عيده؟

تحتفل غالبية دول العالم في الأول من أيار من كل عام بيوم العمّال العالمي، أو اليوم العالمي للتضامن مع الطبقة العاملة، والذي يعود تاريخه إلى أكثر من قرن ونصف قرن، بعد تحرّك ثورات عمّالية في عدد من دول الغرب والولايات المتحدة اعتراضاً على ظروف العمل القاسية، وبهدف المطالبة بتقليل ساعات العمل من 12 أو 15 ساعة يومياً إلى ثماني ساعات.

في لبنان اليوم، يتراوح المعدل العام لقيمة أجور العاملين في القطاعين العام والخاص بين سبعين دولار ومئة، في حين تدولرت أسعار غالبية السلع والخدمات بما فيها الأدوية والمواد الغذائية والطاقة، فبات إيجار أصغر شقة سكنية في ضواحي العاصمة بيروت يتجاوز مئة دولار، أي أن على الأجير العمل شهراً كاملاً فقط لتأمين سقف يؤويه وعائلته، من دون القدرة على تأمين حاجاته الأساسية الأخرى، كالطبابة والتعليم والمأكل والمشرب واللباس وبدل التنقلات وغيرها.

ولم تعد أولويات العمّال التظاهر لتحسين ظروف العمل ورفع المطالب كمنع عمالة الأطفال وزيادة الأجور، إنما من أجل ضمان العيش وتلافي الموت أمام أبواب المستشفيات، وتلافي ذل محتّم بسبب فقدان الأدوية واستحالة الحصول على ما توفّر منها في السوق السوداء بسبب ارتفاع أسعارها.

> **لم تعد أولويات العمّال في لبنان التظاهر لتحسين ظروف العمل وزيادة الأجور بل لضمان العيش وتلافي الموت أمام أبواب المستشفيات والذل المحتّم بسبب فقدان الأدوية**

واضحت ضرورة اطّلاع العاملين على عقد العمل ومناقشته وتشجيعهم على الانضمام إلى النقابات والتأكد من انتسابهم إلى الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي وضرورة تطوير الأطر النقابية والمدنيّة التي تساعدهم والموظفين على فهم حقوقهم وواجباتهم بشكل أعمق، شكليات أمام الانهيار الأمني الاقتصادي والبنيوي الذي يمر به لبنان.

أطلقت الحكومة عام 2022 برنامج «شبكة الأمان الاجتماعي في حالات الطوارئ»، الممول بقرض من البنك الدولي، لتوسيع الحماية وتوفير الخدمات الاجتماعية للأسر التي تعيش في فقر، بهدف الوصول إلى 786 ألف فرد، أي حوالي 11,6% من السكان، بمساعدة نقدية بحلول العام 2025.

ويكاد يكون هذا الإجراء الوحيد الذي يمسّ المواطنين، إذ لم تقدّم الحكومة أي خطة أو إجراء لتحسين الأوضاع، خصوصاً في ما يتعلق بالرقابة على العمالة الأجنبية ومزاحمتها للعمال اللبنانيين، ولا يقصد هنا اضطهاد الأجانب أو التمييز، إنما التأكد من حسن تطبيق قانون العمل لضمان فرص عمل للبنانيين. ففي الوقت الذي يعمل جزء من اللبنانيين بأجور غير كافية، يبقى الجزء الأكبر منهم عاطلاً عن العمل مقابل عمل الأجانب بصورة غير قانونية ومن دون أوراق رسمية وبأجور أدنى بكثير من تلك التي يتقاضاها العامل اللبناني.

في عيد العمّال هذا العام، لا بد من تأكيد ضرورة تحمّل الحكومة المسؤولية، من خلال وضع خطط وتأمين تمويل عن طريق الضرائب التي تُفرض على أصحاب الثروات حصراً، بهدف تأمين الحق في الضمان الاجتماعي من خلال تعزيز صندوق الضمان الاجتماعي للدعم الطبي وتوفير برامج دعم تعليمي وتقاعدي للعاملين في القطاعين الرسمي والخاص على حد سواء. (راجع «القوس»، 21 كانون الثاني 2023، "لا عدالة ضريبية").

كذلك التأكيد على فرض الرقابة الصارمة على أصحاب العمل وتفعيل عمل التفتيش للتأكد من التزام الموظفين في القطاع العام، واحترام المؤسسات لحقوق العاملين في القطاع الخاص، إذ تستغلّ الكثير من المؤسسات وضع العاملين الصعب وتحرمهم من بعض المخصصات ومن الإجازات وتفرض عليهم أجوراً لا قيمة لها، أو تصرفهم تعسفياً من دون أي تعويضات.

في ظل عجز الدولة عن تأمين فرص عمل لمواطنيها نتيجة لما تمرّ به من فوضى وحالة اللا دولة واللا أمن، وفي ظل غياب أي أمل بوضع خطة اقتصادية متكاملة للنهوض، ومع غياب أي دور فاعل للاتحاد العمّالي العام والنقابات العمّالية، يرزح العمّال اللبنانيون تحت خط الفقر أمام لا بالانفراج أو الهجرة.

في الواجهة

5 دولارات سنوياً بدل إشغال متر الشاطئ
هل يطبّق القانون على المسابح غير المـرخّصة؟

منذ اكثر من سنة، نترقّب استصدار مرسوم يعدّل اسس تحديد الرسوم السنوية المترتبة على الترخيص بالإشغال المؤقت للاملاك العمومية البحرية، وجباية رسوم الدخول إليها او استثمارها من المواطنين تحت إشرافها. إذ تتوجّب هذه الرسوم على الشاغلين المرخّصين، ويخضع غير المرخّص للهدم والإخلاء الفوري. ووفقاً لما اوردنا في مقال سابق (راجع «القوس»، 9 نيسان 2022، إشغال «مؤقت» منذ مئة عام)، من الضروري التأكيد ان رسوم الإشغال المعدّلة حديثاً لا تزال ارقاماً هزيلة، وان إيرادات هذه الاملاك تقتضي ان تكون رافعة للاقتصاد والتنمية الاقتصادية، والّا ان تكون في ايدي النافذين وابنائهم، بل لمصلحة ابناء الوطن جميعاً. فهل يطبّق المرسوم على مستبيحي الشواطىء او مستثمريها؟

صادق علوية

قرر مجلس الوزراء، بموجب قراره رقم 12 المتّخذ في جلسته المنعقدة بتاريخ 2023/4/18، تعديل أسس احتساب سعر المتر المربّع لتحديد الرسم السنوي المترتب على الإشغال المؤقت للأملاك البحرية، والموافقة على مشروع المرسوم الذي سيصدر بمقتضاه. وتنصّ المادة الأولى من مشروع المرسوم على أنه «تُعتمد الأسس والمعدّلات المبيّنة لتحديد الرسوم السنوية المترتبة على الترخيص بالإشغال المؤقت للأملاك العمومية البحرية وفقاً للجدول الملحق بهذا المرسوم، على أن يُعدّل سعر المتر المربّع الوارد في الجدول الملحق عبر تحويله إلى الدولار الأميركي على أساس سعر صرف 1507,5 ل.ل. ثم ضربه بمتوسط سعر صرف السوق لليوم السابق لتاريخ إصدار رخصة الإشغال المؤقت للأملاك العمومية البحرية لتاريخ تجديدها». وبالتالي، يبقى هذا الرسم بالليرة اللبنانية، لكنه يصبح رسماً متحركاً يرتبط بسعر صرف الدولار في السوق لليوم السابق لتاريخ إصدار الرخصة أو تجديدها.

الزيادة الدورية لرسوم الإشغال المؤقت للاملاك العمومية البحرية

إضافة إلى تعديل مرسوم أسس تحديد الرسوم السنوية للإشغال المؤقت، تجدر الإشارة إلى أن المادة 7 من المرسوم رقم 4217، الصادر بتاريخ 2018/12/28، تنصّ على وجوب مضاعفة الرسوم بنسبة نصف الزيادة التي تطرأ على الشطر الأول لغلاء المعيشة الذي يقرّ للقطاع الخاص، على أن تطبّق هذه الزيادة اعتباراً من السنة التالية لصدور مرسوم غلاء المعيشة. أي أنه كان يقتضي أن تُزاد هذه الرسوم تلقائياً ومن دون الحاجة إلى أي مرسوم أو قرار بدءاً من السنة التالية لصدور مراسيم غلاء المعيشة، بموجب المرسومين رقم 9129 تاريخ 12 أيار 2022 (تعيين بدل غلاء معيشة للمستخدمين والعمال الخاضعين لقانون العمل)، ورقم 10598 تاريخ 19/10/2022 (إقرار زيادة مالية مضافة على الأجر الشهري للمستخدمين والعمال الخاضعين لقانون العمل)، أي منذ بداية العام 2023، حيث أضيف إلى الشطر الأول من الأجر مبلغ 1,325,000 ليرة، فإن المضاعفة التي كانت تبلغ ضعفاً واحداً تقريباً قبل تطبيق المرسوم الجديد لغلاء المعيشة بقتضي أن تنعكس أيضاً على هذا الرسم بالأسس ذاتها.

الإشغال غير المجاز بمرسوم: الهدم والإزالة

أما الإشغالات غير المرخّصة والتي تُعدّ تعدّياً على الأملاك، فالأمر قانوناً لا يحتاج إلى أي قرار، ولا يجوز أن تشمل شاغليها أي تسوية أو فترة سماح، إلا بصدور قانون يجيز السماح لهم بإبقاء منشاتهم. ومن المفيد الإشارة إلى القانون الذي صدر عام 1990، ونصّت المادة 30 من قانون الموازنة لعام 1990 على ما يلي: «تعتبر باطلة بطلاناً مطلقاً ويحظر على أي جهة رسمية ترتيب أي أثر قانوني عليها جميع الأعمال والتصرفات والتدابير الحاصلة خلافاً للقواعد والأصول المقتضية قانوناً وبصورة خاصة ما يلي: .. ب. إشغال الأملاك العامة البحرية الحاصلة دون استصدار مراسيم تجيزها ولا يترتب للشاغل الفعلي بصورة قانونية أي حق مكتسب مهما كانت مدة إشغاله». فالقانون يبقى نافذاً ولا يُلغى إلا بقانون، لا بل إذا ما أردنا تطبيق القانون بتشدّد، لا يجوز منح المعتدي أي ترخيص أو تسوية لأن القانون 1994/324 (تسوية مخالفات البناء)، ينصّ بشكل لا يقبل التاويل على أن الأملاك البحرية لا تخضع لأي تسوية حتى صدور القانون الخاص بها. كما أن

> لمعالجة الدولة للإشغال غير القانوني للأملاك العامة البحرية ضرورتان: الحاجة الماسّة للإيرادات ووقف استباحة املاكها

القانون 2017/64 (معالجة الإشغال غير القانوني للأملاك العامة البحرية) يتناول التعدّيات الواقعة على الأملاك البحرية المشغولة قبل 1994/1/1.

34,5 مليون دولار

بحسب وزارة الأشغال، بلغت إيرادات الخزينة العامة ما يوازي 52 مليار ليرة سنوياً، أي ما يعادل 34,5 مليون دولار قبل الأزمة. أي أنها ستبقى 34,5 مليون دولار وإنما ستتغيّر قيمتها بالليرة اللبنانية، إذ تبلغ حالياً: حوالي ثلاثة آلاف مليار ل.ل.

وللتوضيح، فإن هذه المبالغ لا تعدّ كبيرة، ولا تزال اقل من المبالغ المفروض جنيها من هذه الأملاك التي تُخمّن ببضعة ملايين من الليرات، في حين ان قيمتها الحقيقية اضعاف ذلك. فمن الجائز جداً أن تبلغ قيمة المتر الواحد الذي على أساسه يُحدد رسم الإشغال وفق الجدول المرفق بالمرسوم والذي يتراوح بين 3 سنتات كحد أدنى و59,7 دولاراً كحد أقصى، وباحتساب معدل وسطي يكون رسم إشغال المتر الواحد حوالي 5 دولارات سنوياً.

معالجة الإشغال غير القانوني للاملاك العامة البحرية

لمعالجة الدولة لهذا الملف ضرورتان: الحاجة الماسّة للإيرادات ووقف استباحة الأملاك العامة. إذ لم يعرف التاريخ دولة أو شركة أو مؤسسة أو حتى منظمة مفلسة، تترك أملاكها للغير من دون الاستفادة منها. لا سيّما أن الإيرادات المحصّلة عن تسويات الأملاك البحرية، وهي تختلف عن رسوم الإشغال، بلغت بحسب وزارة المالية حوالي 30 مليار عام 2020، و24,6 مليار ليرة عام 2021، ما يعني أن هذا الرقم الذي يقارب العشرين مليون دولار يمكن أن يصل بسهولة إلى مئة مليون دولار في السنة كحد أدنى. وإذا ما أضفنا رسوم الإشغال المرخصة إليها، يصل مجموع الإيرادات إلى 134 مليون دولار سنوياً كحد أدنى، إذا افترضنا أن الخزينة ستُبقي على هذه الرسوم بمعدلاتها السابقة الهزيلة. وإذا ما حسنت النوايا الحكومية بالإصلاح، يُقتضى أن تُدار هذه الأملاك وفق أصول استثمارية خاصة، على أساس مزايدات شفافة تحدّد فيها رسوم الإشغال للمستثمر الذي يقدّم السعر الأعلى، على أن تكون رسوم الإشغال المحددة في المراسيم هي الحد الأدنى. كما يمكن استثمارها وفق أحكام قانون الشراكة بين القطاعين العام والخاص، ما يمكن أن ينعكس إيجاباً على تنمية المناطق النائية التي تُعدّ الرسوم فيها منخفضة نسبياً.

مع الإشارة إلى أنه يقتضي على الإدارة أن تضع يدها على الأملاك العامة البحرية المشغولة خلافاً للقانوناً، وأن تُخلي وفقاً لأحكام القانون 2017/64، وأن تفرض في هذه الحالة، على الفترة الممتدة من تاريخ وضع اليد إلى تاريخ إخلاء الأملاك العامة البحرية، غرامة سنوية تساوي ضعفي البدلات السنوية. وحتى ولو منحتهم الدولة ترخيصاً بالاستمرار بإشغال هذه الأملاك، لا يجوز إعفاؤهم من الرسوم السابقة المتوجّبة منذ عقود وجعلهم في وضع أفضل من الشاغلين المرخّصين وتامينياً للمنافسة العادلة بينهم.

فتح هذا الملف على مصراعيه، سيشكّل مدخلاً واسعاً للتنمية المتوازنة المنصوص عليها في اتّفاق الطائف وداعماً لتنمية الاقتصاد سواءً على صعيد السياحة أو الصناعة في جميع المناطق اللبنانية.

كيف تُحتسب رسوم الإشغال للاملاك البحرية؟

يصدر مرسوم عن مجلس الوزراء يحدّد سعر المتر المربّع، ويُعتمد هذا السعر لتحديد الرسم السنوي المترتّب على شاغل العقار، ويكون رسم الإشغال نسبة مئوية يحددها المرسوم نفسه. فمثلاً إذا كان سعر المتر المخمّن بـ 1,2 مليون ليرة:

المساحة بالمتر المربع	سعر المتر (بالليرة)	النسبة المئوية	الرسم السابق بالليرة	الرسم المتوجّب بالليرة بعد ربطه بسعر صرف الدولار
3,000	1,200,000	0,5	18,000,00	1,074,626,866
8,000	1,200,000	0,1	9,600,000	573,134,328
8,000	1,200,000	0,75	72,000,000	4,298,507,463

■ اعتُمد سعر صرف منصّة صيرفة المحدد من قبل مصرف لبنان باعتباره الوحيد الرسمي الأقرب إلى سعر السوق تتراوح النسبة بين 0,1 و1%، بحسب ما إذا كان العقار يابسة أو مسطّحاً مائياً محصوراً أو غير محصور أو مردوماً. مع العلم أن العقارات المخمّنة بين 40 ألف ليرة و9 ملايين ليرة للمتر الواحد، أصبحت مخمّنة بعد قرار مجلس الوزراء بين 26,5 و5970 دولاراً للمتر الواحد، كقيمة للعقار وليس للرسم، وإنما الرقم الذي على أساسه يُحتسب الرسم. وبالتالي، يتراوح بدل إشغال المتر الواحد بين 3 سنتات أميركية كحد أدنى و59,7 دولاراً كحد أقصى.

المخالفات بحسب القانون

تُعدّ باطلة بطلاناً مطلقاً ويحظر على أي جهة رسمية ترتيب أي أثر قانوني عليها، جميع الأعمال والتصرفات والتدابير الحاصلة خلافاً للقواعد والأصول المقتضاة قانوناً وبخاصة في ما يلي:

أ - عقود البيع أو الوعد به والإيجار المبرمة خلافاً للأحكام والأصول المحددة لها.

ب - إشغال الأملاك العامة البحرية الحاصلة دون استصدار مراسيم تجيزها ولا يترتب للشاغل الفعلي بصورة غير قانونية أي حق مكتسب مهما كانت مدة إشغاله.

ج - الإشغال المؤقت للأملاك العامة أو البلدية واستثمارها خلافاً للأصول وإن كان حاصلاً بمقتضى ترخيص من المرجع المختص. (المادة 30 من قانون رقم 14، الموازنة لعام 1990)

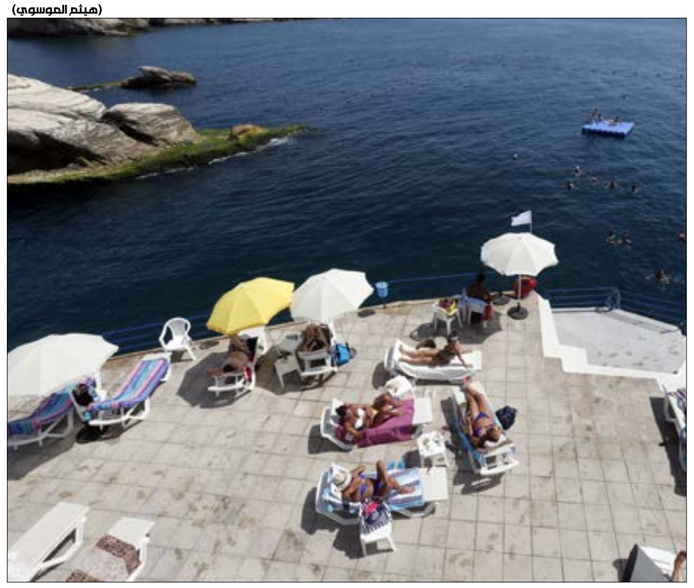
(هيثم الموسوي)

متابعة

الدول الغربية تستعيد سلوكيات الحرب الباردة
محاولات طرد روسيا من مجلس الأمن

عمر نشابة

لم يتحمّس الاتحاد الأوروبي يوماً لأخذ أي إجراء جدّي بحق أي دولة أو كيان انتهك ميثاق الأمم المتحدة كما يتحمّس اليوم لطرد روسيا من مجلس الأمن الدولي. علماً أن معظم الدول الأوروبية دعمت وأيّدت وشاركت في الاجتياح الأميركي - الغربي للعراق وافغانستان خلافاً لميثاق الأمم المتحدة. كما تحمي تلك الدول وتموّل الكيان الإسرائيلي الذي ينتهك مئات القرارات الصادرة عن الجمعية العمومية ومجلس الأمن والمجلس الاقتصادي الاجتماعي. سقط القناع عن وجوههم الحقيقية، وتبيّن أن القانون الدولي، بالنسبة لمعظم الدول الغربية التي تدّعي الحرية والعدالة والرقي، مجرّد أداة لتحقيق مآربها السياسية وتأمين مصالحها مهما كان الثمن على الدول والشعوب الأخرى. لكن الحجج القانونية التي يتناولها الأوروبيون تبدو ضعيفة ولا يظهر أن طرد روسيا من الأمم المتحدة سيكون ممكناً.

دعا رئيس المجلس الأوروبي شارل ميشيل إلى طرد روسيا من مجلس الأمن الدولي رداً على العملية العسكرية الروسية في أوكرانيا. واستند ميشيل إلى سابقة طرد الاتحاد السوفياتي من عصبة الأمم عام 1939 رداً على تقدّم الجيش الأحمر يومها باتجاه فنلندا. لكن طرد روسيا اليوم من الأمم المتحدة قد لا يكون بهذه البساطة، لأنه بموجب المادة 6 من ميثاق الأمم المتحدة، يتطلب توصية من مجلس الأمن. ولا شك في أن الصين، وهي من بين الأعضاء الخمسة الدائمين في المجلس، ستعترض على التوصية. وبالتالي، يبحث أعداء روسيا اليوم عن سبل أخرى لتحقيق مآربهم، ويدرس الأوروبيون، على ما يبدو، سابقتين تتمثلان بطرد منظمة الأمم المتحدة لتايوان عام 1971، ولجنوب أفريقيا عام 1974. كما يفكرون بالمطالبة بنزع الصلاحيات التي كان يتمتع بها الاتحاد السوفياتي عن جمهورية روسيا الاتحادية.

فاعلنت منع جنوب أفريقيا من المشاركة في التصويت على قراراتها ومن الحديث خلال انعقاد الجمعية. ولا شك في أن هذا المنع يعدّ طرداً من الأمم المتحدة.

لم يجد الأوروبيون قواعد قانونية ومعايير إجرائية يمكن الاستناد إليها للشروع في طرد روسيا بالطرق نفسها التي طردت من خلالها تايوان وجنوب أفريقيا، فانتقلوا إلى البحث عن سبل أخرى أساسها نزع الصلاحيات القانونية التي كان يتمتع بها الاتحاد السوفياتي عن جمهورية روسيا الاتحادية. علماً أن المادة 17 من النظام الداخلي لمجلس الأمن تشير إلى أن «كل ممثل في مجلس الأمن تلقى وثائق تفويضه اعتراضاً في مجلس الأمن، يستمر في شغل مقعده متمتعاً بما يتمتع به الممثلون الآخرون من حقوق إلى أن يبتّ مجلس الأمن في الموضوع». والمقعد الذي تشغله روسيا حالياً هو مقعد الاتحاد السوفياتي عملاً بالمادة 23 (1) من ميثاق الأمم المتحدة. وبالتالي، فإن ممثل روسيا سوف «يستمر في شغل مقعده» في المجلس حتى يصوّت الآخرون على اتخاذ قرار في هذا الشأن. لكن، قد تعترض الولايات المتحدة والدول الأوروبية في المجلس على أوراق اعتماد روسيا، ويُترك مقعد الاتحاد السوفياتي فارغاً. أو قد يقولون إن روسيا لم تعد تفي بشروط المادة 4 (1) من الميثاق، والتي تنصّ على أن «العضوية في الأمم المتحدة مباحة لجميع الدول الأخرى المُحبة للسلام، والتي تأخذ نفسها بالالتزامات التي يتضمّنها هذا الميثاق». لكن هناك خللاً أساسياً في قانونية هذا الاعتراض، إذ إن المادة 4 تتعلق بالقبول بالعضوية وليس بالطرد. أضف إلى ذلك أنه لم يشكّ أحد خلال ثلاثين عاماً من شغل روسيا الاتحادية مقعد الاتحاد السوفياتي. وبالتالي، لا يمكن الاعتراض الجدّي اليوم وإبطال تولّي روسيا مقعد الاتحاد السوفياتي. وإذا افترضنا أن الصين منذ تأسيس الأمم المتحدة (1945) بسبب رفض الولايات المتحدة والدول الغربية الاعتراف بالنظام السياسي الصيني. لكن تبيّن في العام 1971 لأكثرية الدول الأعضاء في الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تغييب تمثيل الشعب الصيني لا يمكن أن يستمرّ، فقررت الجمعية نقل المقعد إلى حكومة الصين الشعبية. اقتضى ذلك تلقائياً، بالرغم من معارضة الدول الغربية، طرد تايوان من الأمم المتحدة إذ إنها ليست «دولة»، بل مجرّد جزيرة تسيطر عليها مجموعة تدعو إلى الانفصال عن الصين الشعبية.

وفي العام 1974، سعت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى طرد جنوب أفريقيا بسبب نظام حكم «الأبارتايد» العنصري فيها، لكنها لم تنجح.

> لم يجد الاوروبيون قواعد قانونية يمكن الاستناد إليها للشروع في طرد روسيا بالطرق نفسها التي طردت فيها تايوان وجنوب أفريقيا

الأمم المتحدة وافقت على عدم وجود أساس قانوني لروسيا للجلوس في مجلس الأمن في مقعد الاتحاد السوفياتي، فسيكون التشكيك ممكناً في قانونية كل القرارات التي اتخذها المجلس بين عامي 1991 و2023.

أخيراً، لا بد من التذكير بتشكيل «رابطة الدول المستقلة» (1991) بعد تفكّك الاتحاد السوفياتي، وانضمام أوكرانيا وسائر الجمهوريات التي كانت جزءاً من هذا الاتحاد إلى الرابطة. وقد صدر عن «كومنولث» الدول المستقلة إعلان ألما آتا في 21 كانون الأول 1991، والذي نصّ على «دعم استمرار روسيا في عضوية اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في الأمم المتحدة، بما في ذلك العضوية الدائمة في مجلس الأمن». وبالتالي، اتفقت جميع جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة على تولّي روسيا الاتحادية مقعد الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة. أما بالنسبة للدول الأخرى، بما في ذلك الأعضاء الدائمون الأربعة الآخرون في مجلس الأمن، فقد ضُمنت موافقتهم من خلال ترحيب كل منهم رسمياً بممثل روسيا الاتحادية. وقد انتقلت الأصول النووية الاستراتيجية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية إلى روسيا، كما انتقل جزء كبير من البحرية السوفياتية إليها. وكذلك بالنسبة إلى شبكة مرافق الإنذار المبكر التابعة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

الاتحاد السوفياتي في الميثاق

ينصّ ميثاق الأمم المتحدة على وجود خمسة أعضاء دائمين في المجلس. ولكل عضو دائم حقّ النقض. وكما هو مذكور في المادة 23 (1)، فإن الأعضاء الخمسة الدائمين هم «جمهورية الصين، وفرنسا، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية». وقد تم حلّ الاتحاد السوفياتي عام 1991 بينما كانت روسيا واحدة من جمهوريات الاتحاد السوفياتي. وشغل ممثل روسيا الاتحادية مقعد الاتحاد السوفياتي منذ عام 1991. ومع ذلك، بقي نصّ المادة 23 (1) على حاله ولم يعدّل.

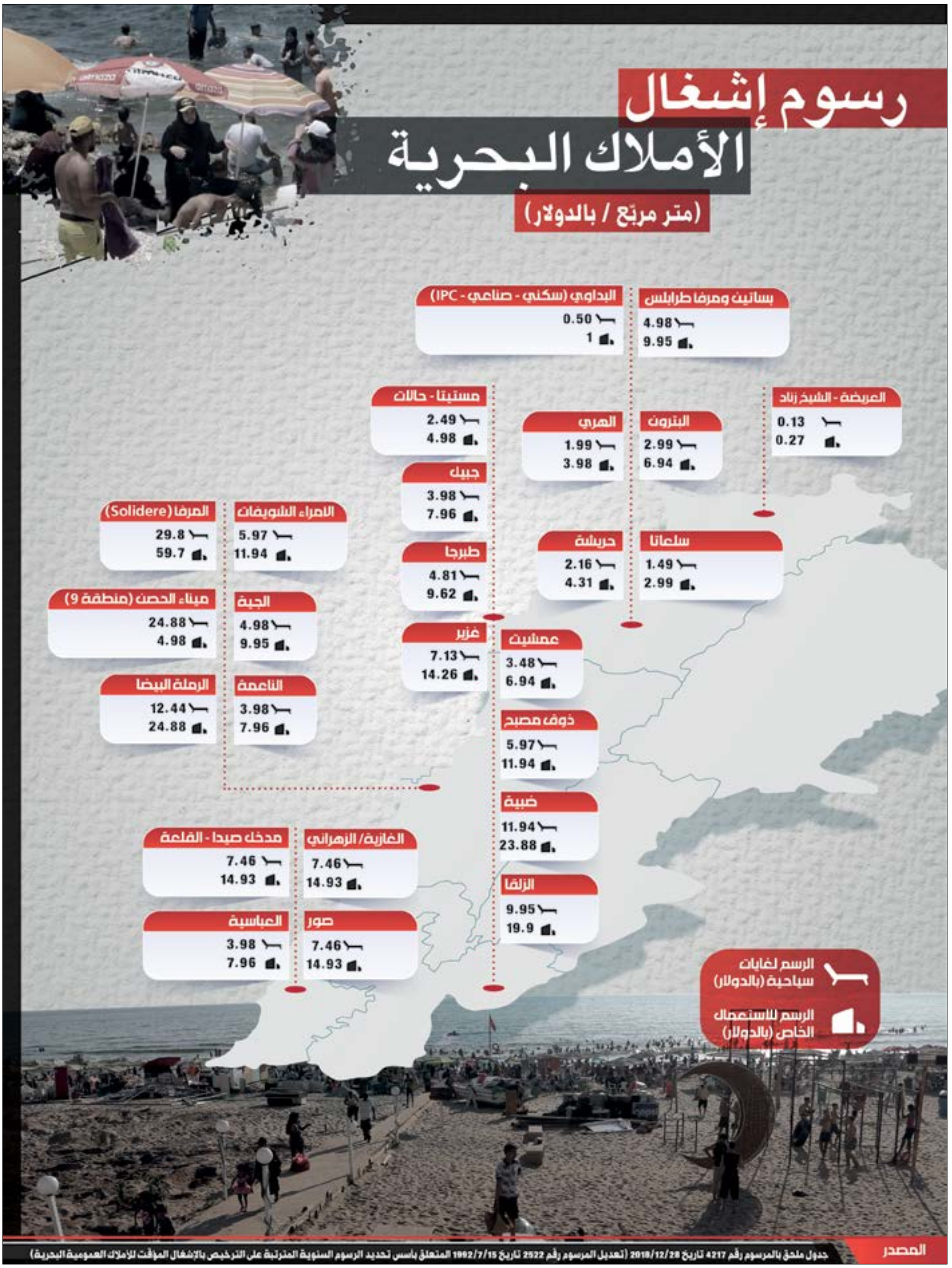

القوس

■ فريق التحرير: **عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، الف باء القانون**
■ تصميم فني وإنفوغرافيك: **رامي عليّان**

alqaous | al_qaous | alqaous22 | alqaous | 01/34 99 54
info@alqaous.com | www.alqaous.com